الامــام علي (عليه السلام) قدوة وأسوة

آية الله السيد محمد تقي المدرسي

- تمهيـد
- الفصل الأول : الأصل الكريم والميلاد المبارك
- الفصل الثاني: حياته في عهد الرسول (ص)
- الفصل الثالث: الإمام علي (ع) يواجه المحنة
- الفصل الرابع: عهد امامته عليه السلام
- الفصل الخامس: فضائلــه ومناقبــه
- الفصل السادس : في فضائله (ع) على لسان النبي (ص)

فهرس الكتاب

تمهيـد

الحمد لله ، وصلى اللـه على محمد وآله الطاهرين ..

حين يقف المرء على محيط بعيد الشواطئ ، عالي الموج يتردد كثيراً قبل ان يخوض غماره ؟

كذلك ترددت ، قبل أن أقرر الكتابة حول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، بل بيَّضت بعض الأوراق قبل عشرين عاماً بحياة إمام المتقين ، ولمّا أكملها حتى اليوم .

ولولا أني فرضت على نفسي ذلك ، بالنذر لَمَا اقتحمت هذه العقبة .

ولكن ، إذا كانت حياته بحراً زخاراً واسع الأطراف ، أفلا يخسر من لا يبل غليله منه ولو بقطرة ؟..

فهذه السحب الخيرة لاتزال تروي الأراضي الموات ، أكثر من ألف عام فَيُحييها الربُّ بها ، أفلا أعرض قلبي لها ، فلعل اللـه يُحييه فيما يُحيي ؟

حياته الفذة التي تكاد لا تنتهي عِبَرُها ، أفلا أجعلها نبراساً في ظلمات دهري ؟ بلى .

والتـــزاماً مني بأسلوب هذه السلسلة (قدوة وأسوة) اجتهدت في لملمة أطراف الموضوع قدر المستطاع ، وأسأل اللـه ان يوفقني بفضله لإتمام المشروع ، إنه ولي التوفيق .

فهرس الكتاب

الفصل الأول : الأصل الكريم والميلاد المبارك

وليداً عظيماً :

كانت مكة تحتفل بالوافدين إلى زيارة بيت اللـه الحرام .. في الشهر الحرام ، رجب الأصب . وكانت الوفود الكريمة تؤدي مناسك البيت ، والناس يطوفون حوله ، وينادون ربهم حيناً ، والأصنام أحياناً . وكانت هنالك امرأة كريمة ، تطوف لا كما يطوفون ، إذ كانت تتجه إلى اللـه وحده لا شريك له ، فتغمر نفسَها ضراعةُ المتبتِّل ، وخشوع المحتاج ، ووقار المطمئن إلى فضل اللـه ، تدعو اللـه وحده ، وتسأله أن يخفف عنها وطأة ما تخافه وتحذره .

لقد كانت أُمّاً لثلاثة أبناء وبنت واحدة ، ولكن لم يشتد بها المخاض ولا عصر أعصابها كهذه المرة .

ودعت ، فألحت في الدعاء لعل اللـه يخفف عنها آلام الطلق ، وتضرعت فأبلغت في التضرع ، وفي الجانب الغربي من البيت ، إذ اجتمع طائفة من الحجاج ، حدث أمر عجيب :

لقد كانت في أُخريات أشواطها ، عند مقترب الركن اليماني ، إذ انشق لها جانب البيت ، وكأن نداءً خفيّاً يدعوها أن ادخُلي بيت ربك !

دخلت البيت ، والناس يشهـــدون في ذهول ويصيحون صيحة العجب !. فيتقاطر عليهم سائر الطائفيـــن ، يسألون عن الحدث ؟ ومن هذه السيدة التي كانت الساعة

تطوف ؟. إنها حفيدة هاشم بنت أسد ، زوجة أبي طالب والدة أم هاني وطالب وعقيل وجعفر . إنها فاطمة !.

ويجتمع الناس وبينهم الزعماء والأشراف .. وبعد مدة ، ينشق الجانب ذاته ، فتتهلَّل وجوه الحاضرين كما يتهلل وجه الوليد العظيم ، وهو يتقلب على أذرع الوالدة الكريمة .

إنه حادث فريد من نوعه ، أن ينشق طرف البيت ، فتدخل الحامل وتلد في مركز الإشعاع الروحي والبركة الإلهية ، بيت اللـه الحرام الذي يعتبر أقدس محل " يحترمه العرب " ..

وإنها لكرامة لبني هاشم على قريش ، ولقريش على العرب أن يوليّهم ربُّ البيت بهذه العناية ، فيسمح لامرأة منهم أن تضع حملها ببطن بيته ، مكرَّماً ومعظّماً .

وسرت البشرى في بيوت الهاشميين !. وانطلقت نساؤها تزف تهانيها إلى فاطمة معجبة مغرمة .. وجاء الزعماء يبشرون أبا طالب بالوليد العظيم ، ومن بين هؤلاء فتى يهمه أمر الوليد أكثر من غيره ، ينظر إليه لا كمـــا ينظر الرجال الآخرون .. إنه محمد بن عبد اللـه (ص) الذي لم يزل يحسب من عائلة أبي طالـــب ، فإذا تناول الوليد تلا آياتِ اللـه فأعجب به وبارك بولادته .

وقالوا : إن الوليد لم يفتح عينيه إلاّ على محيَّا ابن عمه النبي العظيم وسُمِّيَ عليّاً ، واختارت أمه له اسم (حيدر) وإذا كان هذا الاسم يوحي باكتمال الجسم الذي يبشر بالبطولة ، فإن الاسم الآخر كان يوحي ببشائر السموِّ المعنوي .

الولادة المعجزة :

كانت لولادته - كما لمقتله - (ع) ، شهادة حق على صدق رسالات اللـه .. إنه آية اللـه العظمى في كل جوانب حياته ، من ولادته إلى شهادته .

فلماذا تحاط ولادة الرسل والأئمة بالآيات ؟ فموسى (ع) يقذف في التابوت ليلقيه اليم بالساحل .. وليُصنع على عين اللـه .

وعيسى (ع) يولد من غير أب ، ويكلِّم الناس في المهد صبيّاً .

وسيدنا محمد (ص) ترافق ولادته حوادث عظيمة ، تسقط شرفات قصر فارس ، وتخمد نيرانهم ، وتغيض بحيرة ساوة ، وتفيض الأخرى في سماوة و. و.

والإمام علي يولد في الكعبة بعد أن ينشق لأمه فاطمة بنت أسد ، جانب المستجار ، لماذا ؟.

هل لأنهم قد اصطفاهم اللـه لرسالاته قبل الولادة ، حيث بادروا بالتلبية في عالم الذر قبل غيرهم من الصالحين ، فاجتباهم على علم ، وأبان فضلهم بالولادة المعجزة (١).

أم لأن اللـه سبحانه اطَّلع على مستقبل حياتهم ، فأكرم مواقفهم المسؤولة التي يعلم أنهم سوف يختارونها بكل حرية فأكرم مثواهم ، وجزاهم بطيب الولادة ، وإعجازها ؟..

أم لأن الرب سبحانه أراد بذلك أن يكرم الأصلاب الشامخة والأرحام الطاهرة ممن ولدوهم ، كما فعل بمريم الصدِّيقة ، لمكانها عند ربها ، أو بزكريا وزوجته عليهم السلام جميعاً ؟.

أم لأسباب أخرى ؟

ولكن الولادة المعجزة بلاغ مبين للناس ، بشأن الوليد العظيم بدون أدنى شك .

بعد أن خرجت أم علي (ع) تحمله ، استقبله النبي محمد (ص) وهو يعلم أنه سيكون وصيَّه وخليفته ، فعمَّ السرور قلبه الكبير .

ولم يتفارقا منذ تلك اللحظة حتى ارتحل عنه النبيُّ (ص) إلى ربه ، فلزم الوصي سنَّته حتى الشهادة .

وحين يصف الإمام بفخر عظيم تلك العلاقة الحميمة بينه وبين النبي (ص) لايدع لنا إشكالاً في أنها كانت من تقدير اللـه عزَّ وجلَّ وأن لها آثارها في بلاغ رسالاته إلى الناس .. يقول :

" أنـــا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، وكسوت نواجم قرون ربيعة ومضر ، وقد علمتم موضعـــي مـــن رسول اللـه (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولد يضمّني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، ويمسُّني جسده ، ويشمّني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قوله ، ولا غلطة في فعل ، ولقد قرن اللـه به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره ، ولقد كنت اتبعه اتِّباع الفصيل أثر أُمه ، يرفع لي كل يوم من أخلاقه علَماً ويأمرني بالاقتداء به . ولقد كان يجاور كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام

غير رسول اللـه (ص) وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة . واشم ريح النبوَّة " (٢).

الفتى المبارك :

ولم يزل يدرج ويترعرع متميزاً بين أترابه ، في أعماله ، وأقواله ، ففي ذات يوم ، وكان له آنذاك سنوات قلائل .. وكان يلعب مع أترابه ، إذ ينزلق أحد الأطفال بجانب بئر كانت هناك .. وقبل أن يسقط فيها يلحقه علي (ع) فيأخذ منه عضواً ، فيعلق رأس الطفل إلى الأسفل وتمسك عضوه الأعلى يد عليّ ، ويصيح الأطفال ، ويأتي أهل الطفل .. ويتعجبون للمنظر .. وكان يسمّى عليٌّ - مباركاً - فقالت والدة الطفل : أيها الناس أترون مباركاً ، كيف أنقذ ولدي من الهلاك .

وكانت الظروف صعبةً في مكة ، وقد أصاب البلد الحرام قحط شديد ، عمَّ بيت أبي طالب . فجاء النبي (ص) إلـــى بعض أعمامه الأثرياء ، يفاوضهم في الأمر . واقترح أن يتكفلوا أبناء عمه . فلما عرضوا عليه قـــال : أبقوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم . فأخذ كل من العباس وحمزة عمّا النبيِّ وهاله بنت عبد المطلب عمتـــه ، واحداً من أبناء أبي طالب ، وبقي علي (ع) فإذا بالنبي يستدعيه ليكون له صاحباً ، فيغمره البشر ، ويأوي إليه كما يأوي الفصيل إلى أُمه .

إن علـيّاً الذي فتح عينيه - أول ما فتحهما - على ملامح النبي (ص) ، وظل مغموراً ببركاته أيام صغره . إن عليّاً الذي رأى في محمد (ص) الحب والحنان ، وكل خصال الخير والجمال ، لابد أن يأوي إليه ويسارع إلى قبول كفالته له ، ويفيض فرحاً بذلك وابتهاجاً .

أخذ علي ، يتبع كفيله وحبيبه النبيَّ محمداً (ص) ويطمئن إليه بكل قلبه ، ويقلده في كل عمل !

وذهب النبي (ص) يغدق على ابن عمِّه كل ما أفاءت إليه رحمة اللـه ، من آداب حِسان وخُلق كريم !

.. ولم يزل عليٌّ يرى النبي (ص) دائم التفكير يقلّب وجهه في السماء يلتمس من ربه نوراً .

في تلك الأيام التي كان يتعبد النبي في غار حراء ، كان علي يتدبر في عبادته ، ويفكر فيها فيفهم معنى العبادة ومغزاها ، ويؤمن بمن يعبده ويهتدي إليه بفطرته النقية التي لم يتسرب إليها الشك أبداً !

إن علـــيّاً (ع) أوتي من النبوغ والذكاء ما يؤهله لكل ما كان النبي (ص) مؤهلاً له . ومن الخطأ أن نحدد أول وقت آمن فيه ، فلقد كان مؤمناً بفطرته ولا يصح لنا ان نقرن إيمانه بزمان دون زمان - هكذا عبر النبي - ذات مرة إذ سأله رجل من المسلمين عن أول وقت آمن فيه الإمام علي فقال : إنه لم يكن كافراً حتى يؤمن ، كما أنه نفسه بيّن ذلك حين أكد أنه لم يكن مسبوقاً بالشرك .

وعندما هبط الوحي على قلب محمد (ص) وجاء النبيُّ إلى الإمام يخبره ، ينفتح قلبه على أمر موعود ، وحقيقة منتظرة ، ذلك اليوم كان عمر الإمام عشر سنوات ، ولم يكن يعرف إنسانٌ طيب يمتاز عليه من الآخرين ، بل كانت فيه كل معاني الفضيلة والسمو ، صدقه ، أمانته ، بره بالخلق ، إحسانه ، صلته للرحم وغير ذلك .. أجل لم يكن هناك من يمتاز عليه غير محمد بن عبد اللـه (ص) البر الكريم ، فيكف لايصدقه وكيف لا يتبعه .

وذات يوم دعاه النبي إلى الصلاة ، فقام عليه السلام يتعلم قواعدها ويتوجّه إلى المسجد الأقصى حيث القبلة الأولى للمسلمين .. فيصلي بصلاة النبي ، وتصلي وراءهما خديجة زوجة الرسول . فهؤلاء ثلاثة ليس لهم الآن نظير على الأرض ، يبتهلون إلى اللـه بركعات ، يرتلون من آي الذكر الحكيم ، ما يزيدهم هدى ، ويملأ شعورهم إيماناً واطمئناناً .

لقد تشكلت الآن أول خلية حيّة ، بين ملايين الخلايا الميتة في المجتمع البشري . وإنها تسعى لكي تزيد نفسها حجما وقوة ، وتبعث الحياة - بإذن اللـه - إلى سائر الخلايا .

ومن هذا العقد من حياة علي (ع) يبتدئ عهده مع الجهاد والتضحية ، لقد انتقل من بيت كفيله إلى بيت والده من سنتين ، بيد أنه لايزال يقضي غالب أوقاته في بيت خديجة قريباً من الرسول (ص) ليرفع له كل يوم علماً في المعارف والآداب ، فيتَّبعه . وظل الإسلام يتخذ من هذه الأنفس المباركة - أنفس محمد وعلي وخديجة - أولى قواعده وأزكاها .. حتى اجتمع إليه رجال ونساء يتحدون بالإسلام الوضع الفاسد .

وظل دعاة الإسلام يبذلون في سبيل الدعوة طاقاتهم ودمائهم ، حتى نمت شجرة الإسلام ، وجاء الوحي يأمر النبي بأن يصدع بما يؤمر وينذر عشيرته الأقربين وإظهارها للناس أجمعين .

فأمر النبي عليّاً (ع) أن يهيئ طعاماً ويدعو بني هاشم إلى بيته . واجتمعوا إليه يقودهم أبو طالب سيدهم ووالي أمورهم .

فلما طعموا ورأوا أن قصعة الثريد ، التي أكلوا منها لم ينقص منها شيء وعجبوا ، وجاء النبي يكلمهم بشأن الدعوة راح عمه أبو لهب ، يبعث كلماته الساخرة !!

إن أبا لهب كان من ألد أعداء الإسلام ، مع أنه كان من أقرب الناس رحماً بالنبي (ص) ولم ينزل في القرآن آية يذكر فرداً من معاصري النبي بالسوء غير ما نزل في حق أبي لهب ، وفي سورة كاملة تُبتدأ بقول شديد :

{ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } (المسد/١)

وقد كان أول المستهزئين بالرسول ، ذلك النهار ، حيث قال بين فتيان بني هاشم الذين كانوا زهاء أربعين رجلاً ، قال : لشد ما سحركم صاحبكم ، أي ما أعجبه رجلاً قد سحركم . فتفرق القوم ولم يكلمهم الرسول (ص) .

فلما كان من غد استضافهم علي (ع) مرة أخرى فجاؤوا وأكلوا وشربوا ، وقبل أن يتكلم أبو لهب ، ابتدأهم الرسول قائلاً :

" يا بني عبد المطلب ! إني - والله - ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممَّا جئتكم به . إنّي قَد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرني الله تبارك وتعالى أن أدعوكم ، فأيكم يؤازرني على أمري ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟ "

.

فأحجم القوم جميعاً ، إلاّ علياً ، وكان ذلك اليوم - كما يصف نفسه - أحدثهم سنّاً ، وأرمضهم (٣) عيناً وأعظمهم بطناً ، وأحمشهم (٤) ساقاً فقال :

" أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه " .

فأخذ برقبته ثم قال : " فاسمعوا له وأطيعوا "

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لعليّ وتطيع .

وظلت هذه الدعوة تتراوح بين علي (ع) وخديجة (ع) ثلاث سنوات ، وكان النبي يصلي بهم في خفاء ، ويؤدي بهم مناسك الحج على سنّة الإسلام ، حنيفاً بها عما كان يأتيه أهل الجاهلية .

فلقد أُثر عن عبد اللـه بن مسعود قوله : إن أول شيء علمته من أمر رسول اللـه (ص) قدمت مكة في عمومة لي ، فارشدونا إلى العباس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه وهو جالس إلى مَن ثَمَّ (٥) فجلسنا إليه فبينما نحن عنده ، إذ أقبل رجل من باب الصفا تعلوه حمرة ، وله وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه ، أقنى الأنف ، برّاق الثنايا ، أدعج العينين (٦) كث اللحية(٧) رقيق المسربة(٨) شثن الكفَّين(٩) حسن الوجه ، معه مراهق أو محتلم تقفوه امرأة قد سترت محاسنها ، حتى قصدوا نحو الحجر ، فاستلمه ثم استلمه الغلام ، ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعاً ، والغلام والمرأة يطوفان معه . فقلنا : يا أبا الفضل !. إن هذا الدِّين لم نكن نعرفه فيكم . أوَ شيءٌ حدث ؟ قال : هذا ابن أخي محمد بن عبد اللـه والغلام علي بن أبي طالب ، والمرأة امرأته خديجة بنت خويلد ، ما على وجه الأرض أحد يعبد اللـه تعالى بهذا الدِّين إلاّ هؤلاء الثلاثة .

وقال عفيف الكندي : كنت امرءاً تاجراً ، فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب ، لابتاع منه بعض التجارة ، - وكان امرءاً تاجراً - فواللـه إني لعنده بمنى إذ خرج من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس ، فلما رآها قد مالت ، قام يصلِّي (قال) ثم خرجت امرأة من الخباء الذي خرج ذلك الرجل منه فقامت خلفه فصلَّت ، ثم خرج غلام هيّن راهق الْحُلم من ذلك الخباء فقام معه فصلَّى (قال) فقلت للعباس مَن هذا يا عباس ؟ قال : هذا محمد بن عبد اللـه بن عبد المطلب ابن أخي (قال) : فقلت : مَن هذه المرأة ؟. قال : امرأته خديجة بنت خويلد (قال) فقلت : من هذا الفتى ؟. قال : علي ابن أبي طالب ابن عمه (قال) فقلت له : ما هذا الذي يصنع ؟ قال : يصلِّي ، وهو يزعم أنه نبي ولم يتَّبعه على أمره إلاّ امرأته وابن عمه هذا الفتى ، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر .

ومضت على الدعوة مدة ، وعليٌّ يستقيم على الصراط السوي ، ويقاوم الضغوط ، ويصوغ الوحي شخصيته الفذة . ثم التف حول الدعوة رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر ربهم . فلما أمرهم النبي بالهجرة إلى الحبشة وأمَّر عليهم جعفراً أخا عليٍّ عليهما السلام ، قامت قيامة قريش الذين رأوا من مناوئهم - العظيم - القوة وحسن التدبير ، فأخذوا يدرسون خطة أخرى أشد وأقسى مما سبق ، وذلك بفرض حصار إجتماعي على بني هاشم زاعمين أنهم شذُّوا عن النظام الإجتماعي السائد .

فدبروا أمر الصحيفة الملعونة ، حيث أَجمعوا على أن لايخالط النبيَّ (ص) ومن دار في أفقه من الهاشميين ، وعلى رأسهم سيدهم أبو طالب ، ولا يعاملهم أحدٌ أبداً .. فجمع أبو طالب أهله في شِعْبٍ له ، وذبَّ عنهم بما كان لديه من طاقة وسلطان . وتلك كانت فرصـــة سانحة للإمام عليّ (ع) أن ينهل من نبع النبي الفيّاض ، كل مكرمة وفضيلة ومعرفـــة ، كما استطاع أيضاً أن يمارس جهاده الشاق طيلة ثلاث سنوات . ولعل هذا كان أول ميادين الجهـــاد التي خاضها ابن أبي طالب (ع) ولكن كان له من قبله جهاد آخر ، إلاّ أنه ليس في هذا المستـــوى ، وذلك أن النبي (ص) كان يمر بطرقات مكة فيرشقه أبناء مكة بالحجارة والحصى ، بأمرٍ من أوليائهم ، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يعبأ بذلك ، بيد أن علياً (ع) كان يصاحبه ، فإذا أساء أحدهم إلى النبي (ص) أخذه وجدع أذنه ، وكان عليّ (ع) قويّاً منذ صباه وشجاعاً ، وكان كذلك مهيباً في أعين أترابه ، فإذا رأوه يمشي مع النبي ، قالوا لبعضهم مهلاً فإن معه القضم ، أي الذي يقضم آنافهم وآذانهم .

(١) هكذا جاء في بعض النصوص المأثورة .

(٢) نهج البلاغة الخطبة (١٩٢) .

(٣) رمضت عينيه : حميت حتى كادت تحترق .

(٤) حمشت الساق : دقت .

(٥) لعل مراده انه كان جالساً عند جماعة هناك .

(٦) أي شديد السواد مع سعتها .

(٧) مجتمع الشعر : غير طويل .

(٨) المسربة : الشعر وسط الصدر إلى البطن .

(٩) غليظ الكفين .

الفصل الثاني: حياته في عهد الرسول (ص)

الهجـرة :

وبعد ما نُقضت الصحيفة الملعونة ولم تفتَّ في عضد الدعوة ، واضطرت قريش أن تسمح لبني هاشم بالدخول في رباع مكة ، والإختلاط مع الناس ، أصاب المرض عمَّه وكفيله أبا طالب ، كما أصاب زوجته الوفية خديجة عليهما السلام ، لما كانا قد لاقياه في الشعب من العنت ، فماتا في السنة التالية التي سميت بعام الحزن ، وفقد النبي (ص) أكبر معين وأشد ركن يعتمد عليه في الملمَّات .

وعزم النبي (ص) على الهجرة إلى المدينة المنورة ، وعزم الكفار أن يقتلوه غيلة قبل أن يهاجر إليها ، وانتخبوا من بينهم ثلاثين مقاتلاً مغامراً ، يهجمون على دار النبي (ص) ليلاً فيقتلونه ، وينتمي كل منهم إلى بطن من قريش فيضيع دمه بين قريش جميعاً . وجاء نبأ ذلك إلى النبي (ص) فرسم خطة مسيره إلى المدينة ، وذلك بان يتجه تحت جنح الظلام إلى غار ثور ، ثم يتخذ طريقاً منحرفاً عن الجادة إلى المدينة ، بيد أن الخطة كان يعوزها شيء واحد ، وهو أن هؤلاء الفتية من قريش إذا عرفوا خروج الرسول أول الليل ، فإنهم سوف ينتشرون حول مكة بحثاً عنه ، ولا محالة سوف يجدونه ، وإن وجدوه قتلوه ، فقرر الرسول (ص) أن يموِّه عليهم بأن ينام مكانه شخص ، ليخيَّل إليهم أنه النبي ، وسوف لايكتشفون الحقيقة إلاّ بعد أن يكون النبي مبتعداً عن مكة أميالاً أو يستقر في غار ثور فعلاً .

ولكن من هو ذلك الذي يُقدم على الموت على الفراش ؟. وليس في ساحة الحرب ، حيث الثورة والهياج وحيث يُقاتِل فَيَقتل ويُقتل ، بل الموت على الفراش لايدافع عن نفسه ، ولا تثور أعصابه ، ولا يقوم بحركة !

إن لهذه المهمة رجلاً واحداً فقط ، هو ابن أبي طالب !! إنه لا يتهيَّب أبداً وَقَع الموت عليه ، أو وقع هو على الموت .

وجاء إليه النبيُّ (ص) يعرض عليه أمر الهجرة ، ويأمره بالمهمة ، فإذا بعليٍّ (ع) وكأنه قد بُشر بملك الدنيا ، يرحب بها بعد أن يطمئن إلى سلامة الرسول (ص) .

وينجو الرسول من أيدي المتآمرين ، ويتقلب الإمام على فراشه ، وتلمع حول البيت

سيوف تنتظر الفجر لتهجم على المستلقي على الفراش فتقطعه إرباً إرباً ، وعندما اقترب الصبح ، رمَوا حجراً إليه ، فلم يتحرك ، ثم رمَوا الثاني . وعندما رمَوا الثالث قام من مكانه ، فقال قائلهم من هذا ؟. إنه ابن أبي طالب ، يا عليّ ، اين محمد ؟ فأجال عليٌّ طرفـــه بينهم وقال : وهل أودعتموني محمـــداً ؟.. فأراد بعضهـــم أن يفتك به ، ولكن منعه الآخرون ، وأنجـــاه اللـه من شرّهم .

وكان على الإمام (ع) مهمة كبيرة أخرى ، تلك مسؤولية حمل أهل بيت النبي (ص) وضعفاء المسلمين المتخلفين في مكة إلى المدينة . وكانت مهمة شاقة حيث إن أهل مكة حينما عرفوا بغياب النبي تميَّزوا غيضاً ، لما علموا بأن تخلص النبي عن أيديهم سوف يكلِّفهم كثيراً . فعزموا على أن يمنعوا بقية أصحابه عن الالتحاق به بكل وسيلة ، وراحوا يراقبونهم ، مراقبة شديدة ، ألاّ يفلتوا من أيديهم ، وعلى رأس هؤلاء أهل النبي (ص) وعياله .

وبعد مدة جمع علي (ع) أمره ، وخرج - خفية - بالفواطم : فاطمة بنت (رسول اللـه) ، وفاطمة بنت أسد (والدة الإمام) وفاطمة بنت الزبير (عمته) وبعض الضعفاء من المسلمين يريدون المدينة ، وكانوا قد ابتعدوا عن مكة أميالاً ، عندما علم أهل مكة بالأمر ، فجهزوا سرية سريعة إلى الركب لإعادته قسراً إلى مكة ، وكانت السرية بقيادة جناح ، مولى حارث بن أمية .

فجاءت حتى إذا بلغت الركب ، التفت إليهم علي (ع) فحمل عليه جناح بسيفه فأسرع علي (ع) وأخذ السيف من يده ، وضربه ضربة فأرداه قتيلاً ، واستسلم سائر الافراد لما رأوا من شجاعة علي (ع) وقوة بأسه ، فتركهم الإمام ، وحث راحلته إلى المدينة .

غزوة بدر :

وحشدت قريش قواها ، لتحارب النبي (ص) الذي أخذ يكوِّن في مهجره مجتمعاً إسلاميّا يهدد الظالمين ، فإذا بها ترسل إلى المدينة الف مسلح شجاع ، وجنَّد النبي (ص) لها ما كان يملك من قوة عسكرية فالتقى الجمعان في منطقة (بدر) .

وفي يوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الأولى من الهجرة ، ابتدأ الفريقان بالمبارزة . وكان من بينهم ثلاثة من الشجعان يدعون شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن ربيعة ، فبرزوا للحرب وطالبوا بأقرانهم من قريش، فأنهضَ

رسول اللـه عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . وعليّاً (ع) فراح الإمام حتى قتل الوليد وشيبة ، وشارك في قتل الآخر .. وبذلك فقدت قريش أشجع أبطالها ، وبعد مبارزة أخرى قتل فيها علي (ع) حنظلة بن ابي سفيان ، والعاص بن سعيد بن العاص ورجالاً آخرين من شجعان مكة ، فانهزموا وانتصر المسلمون بإذن اللـه تعالى .

غزوة أُحد :

ورجع جيش مكة منهزماً وقد قتل شجعانه وأبطاله . فأخذت سلطة الأشراف تستعد لشن حملة أخرى ، تغسل بها ما أصابها في بدر من عارٍ وذلٍ ، وتبيد بها دعوة النبي (ص) ورسالته .

ويصف علي (ع) هذه الغزوة ، فيقول : وأقبل إلينا أهل مكة على بكرة أبيهم - قد استحاسوا (أي حرضوا وجمعوا) من يليهم من قبائل قريش ، طالبين بثأر مشركي قريش في يوم بدر ، فهبط جبرائيل على النبي (ص) فأنبأه بذلك ، فذهب النبي (ص) وعسكر بأصحابه في سد أُحد ، وأقبل المشركون إلينا فحملوا علينا حملة رجل واحد ، واستشهد من المسلمين من استشهد ، وكان ممن بقي ما كان من الهزيمة وبقيتُ مع رسول اللـه (ص) . ومضى المهاجرون والأنصار إلى منازلهم من المدينة كلٌّ يقول قُتل النبي (ص) وقُتل أصحابه - ثم ضرب اللـه عزّ وجلّ وجوه المشركين ، وقد جرحت بين يدي رسول اللـه (ص) نيفاً وسبعين جرحةً ، منها هذه وهذه ، ثم القى عليٌّ (ع) رداءه وأمرَّ بيده على جراحاته .

غزوة الأحزاب :

ثم كانت الأحزاب ، حيث تجمعت قريش والأعراب لمحاربة الإسلام من جديد ويصف ذلك الإمام ويقول : وعقدت بينها عقداً وميثاقاً ، لايرجع من وجهها حتى تقتل رسول اللـه ، وتقتلنا معه - معاشر بني عبد المطلب - ثم أقبلت بحدِّها وحديدها ، حتى أناخت علينا بالمدينة ، واثقة بأنفسها ، حينما توجهت له فهبط جبرائيل على النبي (ص) ، فأنبأه بذلك فخندَّق على نفسه ومن معه من المهاجرين والأنصار ، فقدمت قريش فأقامت علىالخندق محاصرةً لنا ، ترى في أنفسها القوة وفينا الضعف ، تُرعد وتُبرق ، ورسول اللـه (ص) يدعوها إلى اللـه عزَّ وجلَّ ، ويناشدها بالقرابة والرحم ، فتأبى ولا يزيدها ذلك إلاّ عتوّاً . وفارسها وفارس العرب يومئذ عمرو بن عبد ود يهدر

كالبعير المغتلم ، يدعو إلى البراز ويرتجز ، ويخطر برمحـــه مرة وبسيفه مرة ، ولا يقدم عليه مُقدم ، ولا يطمع فيه طامع ، ولا حمية تُهيجه ، ولا بصيرة تُشجعه ، فأنهضني إليه رسول اللـه (ص) وعمَّمني بيده ، وأعطاني سيفه هذا (وضرب بيده إلى ذي الفقار) فخرجت إليه ، ونساء أهل المدينة بواكٍ إشفاقاً عليَّ من ابن عبد ود ، فقتله اللـه عزَّ وجلَّ بيدي ، والعرب لاتعد لها فارساً غيره ، وضربني هذه الضربة - وأومأ بيده إلى هامته - فهزم اللـه قريشاً والعرب بذلك ، وبما كان مني من النكاية . بل كانت تلك هي الضربة التي عدلها النبي (ص) بعبادة الثقلين ، فرجحت وقال : " ضربة عليٍّ يوم الخندق تَعْدِلُ عبادة الثقلين " (١).

ومضى أصحاب الرسول (ص) يمجِّدون تلك الضربة التي أنقذت المسلمين من اخطر هجوم عسكري قام به كلُّ مستكبري قريش والقبائل المشركة ، بالتعاون مع اليهود والمنافقين .

يروي الشيخ المفيد في إرشاده ، عن قيس بن الربيع عن أبي هارون السعدي ، أنه قال : أتيت حذيفة اليمان فقلت له : يا أبا عبد اللـه ، إنا نتحدث عن عليٍّ ومناقبه ، فيقول لنا أهل البصرة : إنكم تُفرطون في علي ، فهل أنت محدثي بحديث فيه ؟ فقال حذيفة يا أبا هارون !. وما تسألني عن علي ؟ فوالذي نفسي بيده لو وُضعت جميع أعمال أصحاب محمد في كفة الميزان ، منذ بعث محمد (ص) إلى يوم القيامة ، وَ وُضع عمل علي في الكفة الأخرى ، لَرجـح عمل علي على جميع أعمالهم . فقال : هذا الذي لايقام له ولا يُقعد ولا يُحمل ، فقال حذيفة : يا لكع !. وكيف لا يُحمل ، وأين كان فلان وفلان ، وجميع أصحاب محمد (ص) يوم عمرو بن عبد ود العامري ، وقد دعا إلى البراز ، فأحجم الناس كلهم ما خلا عليّاً فإنه برز إليه وقتله اللـه على يده ؟ والذي نفسي بيده ، لَعَمَلُه ذاك أعظم أجراً من أعمال أصحاب محمد إلى يوم القيامة (٢).

وبعد وقعة الخندق ، سار النبي إلى مكة ، وكان يحب أن يدخل مكة معتمراً ، ومعه عدد كبير من المسلمين .

فأعطى اللواء لعلي عليه السلام ، فلما وصل مشارف مكة منعته قريش منها ، واجتمع أصحاب الرسول تحت شجرة هناك وبايعوه على الموت بما سمي بعدئذ ببيعة الرضوان ، وقال بعض المفسرين : نزلت الآية الكريمة فيها :

{ لَقَدْ رَضِيَ اللـه عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً } (الفتح / ١٨)

فلما رأت قريش مدى استعداد المسلمين للقتال طلبوا الصلح ، والهدنة ، وكان من بين بنود الصلح التي أصرت قريش عليه ورفضه النبي صلى اللـه عليه وآله أنهم قالوا :

يا محمد !. خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقَّائنا ، وليس لهم فقه في الدين ، وإنما خرجوا فراراً من أموالنا وضياعنا فردُّوهم إلينا .

فقال : " إذا لم يكن لهم فقه في الدين - كما يزعمون - سنفقِّههم فيه " .

ثم أضاف : " يا معشر قريش لَتنتهنَّ أو لَيبعثنَّ اللـه عليكم من يضرب رقابكم بالسيف قد امتحن اللـه قلبه بالإيمان " .

فقالوا : من هو ذلك الرجل يا رسول اللـه ؟

فقال : " هو خاصف النعل " .

وكان قد أعطى نعله لعليٍّ يخصفها له (٣).

هكذا نعرف مدى خشية قريش ، وسائر المشركين من بأس الإمام (ع) ، وأنه كان سيف اللـه الذي لاينبو ، وسهم الإسلام الذي لا يُخطئ ، يبعثه النبي (ص) متى أحس بالخطر على الدِّين ، ويُنذر به الأعداء متى ما تمادوا في الغي .

كيف اقتحم الإمام (ع) حصون خيبر ؟

كـان اليهـود يشكِّلون خطـراً كبيـراً في الجزيـرة العربيـة ، وكانوا يتحصنون بمـواقع جيدة ، ربمـا تشبـه مستعمراتهم اليوم في أرض فلسطين .

وكانوا قد نقضوا عهدهم مع الرسول ، وشاركوا في حرب المشركين في الأحزاب ضد المسلمين ، فلما استراح المسلمون من شر قريش ، بسبب صلح الحديبية السابق ، انعطف النبي (ص) بأصحابه على أعظم قلاعهم في خيبر وحاصرها . وكان النبي (ص) يبعث كل يوم قائداً من المسلمين لاقتحامها فيعود خائباً . ويروي ابن إسحاق أن النبي (ص) بعث أبا بكر ثم عمر ، فما فتح اللـه على أيديهما شيئاً . وبعث غيرهما فعادوا جميعاً خائبين ، فقال كلمته المعروفة :

" واللـه لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب اللـه ورسوله ويحبه اللـه ورسوله " .

فتمنى كلٌّ أن يكون هو !. لعلمهم بأن عليّاً أرمد العينين ، ولكنه حين أصبح نادى أين علي ؟ فلما جيء به معصَّب العين من شدة الألم ، مسح عليها فأزال اللـه مرضها واندفع الإمام يحمل راية النصر ، واشتبك مع طلائع اليهود ، وقتل بطلهم المعروف (مرحباً) بضربة صاعقة قدَّت مغفرته ، ووصلت إلى أضراسه ، فولّى اليهود منهزمين إلى حصونهم التي اقتحمها الإمام (ع) وقلع باب خيبر العظيم وتترَّس به ، وكانت تلك من آيات النصر الإلهي التي تجلت على يد أمير المؤمنين علي (ع) .

وبعد عودة المسلمين إلى المدينة ، ونقض قريش لمعاهداتهم في صلح الحديبية الذي كتب الإمام بُنودَه ، استعدَّ الرسول (ص) لفتح مكة . وكان يريدها مفاجأة ، إلاّ أن بعض ضعفاء النفوس تجسس لقريش مجاناً ، فكتب رسالة إليهم ينبأهم بخبر التعبئة ، وسلَّمها لزوجته وسارت بها إلى مكة ، وأنبأ جبرائيل النبي (ص) بذلك فسيّر إليها عليّاً والزبير .

فلما أوقفاها ، أنكرت وعاد الزبير أدراجه ، إلاّ أن الإمام امتشط سيفه ، وأنكر على الزبير رقته لها ، وقال : إن رسول اللـه يخبرنا بأنها تحمل كتاباً إلى أهل مكة ، وتقول أنت بأنها لاتحمل شيئا ؟. ثم قال للمرأة : واللـه إن لم تخرجي الكتاب لأكشفنك . فأخرجت له الكتاب من عقيصتها .

وهكـذا حافظ الإمام - بأمر من الرسول - على سرِّية الحركة ، وسار الجيش البالغ اثنا عشر ألف مقاتل ، وأعطى الرسول الراية لعلي (ع) الذي دخل مكة وهو يقول : اليوم يوم المرحمة ، إيذاناً بالعفو العام الذي أصدره النبي (ص) بعدئذ ، وقال لهم اذهبوا فانتم الطلقاء .

وحطـــم الأصنام التي على الكعبة ، حيث حمل النبي (ص) الإمام وأمره بأن يحطم أصنام قريش ، ففعل (ع) .

ويوم حنين :

لقد تم فتح مكة بيسر لم يحلم به المسلمون ، ودب إلى قلوبهم الغرور ، ولكنهم لم يهنأوا به طويلاً إذ استقبلهم خطر عظيم فها هي هوازن وثقيف وحلفاؤهم المشركون ، يُعَبِّأون كل طاقاتهم للهجوم على المسلمين ، فيجهزون جيشاً يبلغ ثلاثة أضعاف جيش الإسلام . وحين بادرهم الرسول (ص) بالخروج إليهم استفادوا من خبرتهم

بأرضهم ، فكمنوا له في مضيق جبلي لابدّ من مرور جيش الإسلام به في وادي حنين ، وهي من أودية منطقة تهامة ، ويصف المعركة بعض مشاهديها قائلا :

فمـــا راعنـــا - ونحن نسير إلى القوم لنأخذهم على غرة قبل أن يأخذوا حذرهم - ، إلاّ وكتائب هوازن ومن

معهم من العرب قد شدُّوا على المسلمين شدَّة رجل واحد من كل جانب ، فأمعنو فينا ضرباً وطعناً ، واختلط الناس بعضهم ، فاستولى الخوف على المسلمين ودب فيهم الذعر ، فانهزموا عن النبيِّ (ص) لا يلوون على شيء ، وثبت رسول اللـه (ص) في مكانه ، ومعه علي والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث ، واسامة بن زيد (٤).

وثبت الرسول وحوله الفتية من بني هاشم يتقدمهم علي بن أبي طالب (ع) الذي أخذ يكشف الكرب عن وجه رسول اللـه ، ويضرب بالسيف يمنـةً ويسرةً ، فلم يقترب إلى الرسول أحد إلاّ وضربه بسيفه . ونادى العباس عم النبي برفيع صوته وبأمر الرسول : يا أهل بيعة الشجرة ، يا أهل بيعة الرضوان ، إلى اين تفرُّون عن اللـه ورسوله ، فعادت طائفة منهم بلغت زهاء مائة فبرز " جرول " حامل راية هوازن فتحاماه الناس لصولاته الشديدة ، فبرز إليه علي (ع) وقتله فدب الذعر في نفوس القوم ، وقتل الإمام منهم أربعين بطلاً وعاد المسلمون إلى المعركة ، والْتَحم الجيشان ، وأخذ النبي (ص) حفنة من التراب وأعطاها للإمام فألقاها في وجه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه ، وخلال ساعات دارت المعركة على الكفار وتركوا أرض المعركة ، وفيها نساؤهم وأطفالهم وأموالهم ، وحمل الإمام علي (ع) وسام النصر كعادته في كل الحروب .

وحين استخلفه الرسول على المدينة :

وعاد الرسول إلى المدينة ، فانتهى إليه ، في العام التاسع من الهجرة ، خبر مفاده أن الروم يُعِدُّون جيشاً لغزو البلاد الإسلامية . فعبأ قواته لمواجهتهم ، وكان ذلك أول مواجهة - لو تمت - بين المسلمين والكفار خارج الجزيرة ، وبالذات مع الأمبراطورية الرومانية العظيمة ، وكان من الحكمة أن يرتب الرسول أمور بلاد العرب بصورة تامة حتى إذا لم تقدّر له العودة ، تكون البلاد الإسلامية بأيد أمينة ، تأمن شر الإعتداءات الخارجية والمؤامرات الداخلية التي كانت قد أضحت في تلك الفترة متنامية بسبب

دخول مجاميع من الناس في الإسلام ليحفظوا دماءهم ويحصلوا على مغانم ومكاسب .

وهكذا استخلف النبي عليّاً مكانه ، إلاّ أن المنافقين الذين كانوا ينتظرون فرصة كهذه ، ليقفزوا إلى السلطة أو ليعيثوا فساداً في أرض الجزيرة ، راحوا يبثون شائعات بأن النبيَّ (ص) إنما استخلف عليّاً لأنه لم يحب أن يكون معه ، فحمل الإمام سيفه وسلاحه ولحق بالرسول في منطقة " الجرف " فأخبره بمقالة المنافقين ، فقال له النبي (ص) :

" إنما خلفتك لما ورائي ، إن المدينة لاتصلح إلاّ بي أو بك . فأنت خليفتي في أهل بيتي ، ودار هجرتي وقومي ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبيَّ بعدي " .

ولعـــل وراء استخلاف النبي (ص) للإمام (ع) وتسليمه شؤون البلاد الإسلامية أثناء غيابه عنها ، حكمـــة بالغة ، إذ أن عليّاً وصيَّه الذي اختاره اللـه له وأعلن ذلك للناس منذ " يوم الدار " حين أنذر عشيرته الأقربين ، فلابد إذن من تمهيد الظروف لذلك . ويوحي بهذه الحكمة ما نجده في مسند أحمد من قوله (ص) بعدئذ حسب هذا المصدر .

" لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي " (٥).

ويا ليت شعري ، كيف لايترك الرسول المدينة إلاّ وعلي خليفته ، ثم يترك الدنيا دون أن يستخلف عليّاً (ع) ؟.

الغارة التي خلدها الكتاب :

أذعنت الجزيرة العربية لحكم اللـه ، بعد فتح مكة ومعركة حنين ، إلاّ أن الأعراب الذين كان دأبهم الغزو ، تجمَّعوا في منطقة قريبة من المدينة وأرادوا الإغارة عليها على حين غفلة من أهلها . فلما انتهى خبرهم إلى الرسول ، ندب لهم أبا بكر ثم عمراً ثم عمرو بن العاص ، ولكنهم كانوا يؤثرون الإنسحاب بسبب تحصن الأعراب بواد هناك يسمى وادي الرمل ، كان صعب المسالك كثير الأحجار ، وكان موقع المدافعين الحصين سبباً لكثرة إصابات المسلمين .

وكعادة الرسول في الإستعانة بعلي (ع) عند الشدائد ، أرسله وضم إليه القيادات السابقة ، فمضى إليهم الإمام يكمن بالنهار ويسير بالليل ، فلما اقترب منهم وحاصر

مواقعهم في الليل ، انقض عليهم أول الفجر ، وأمعن فيهم قتلاً وأسراً حتى استسلموا .

وذات صباح صلَّى الرسول بالمسلمين صلاة الغداة وقرأ عليهم فيها سورة لم يسمعوها من قبل :

{ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً } (العاديات/١-٥)

فلما سألوه عنها قال :

" إن عليّاً ظفر بأعداء اللـه ، وبشرني جبرائيل في هذه الليلة " (٦).

وحين عاد الإمام (ع) استقبله النبيّ (ص) والمسلمون معه ، فترجَّل الإمام عن فرسه احتراماً للرسول فقال له النبي اركب فإن اللـه ورسوله عنك راضيان . وأضاف :

" لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح ، لقلت فيك مقالة لا تمر على ملأ من الناس إلاّ أخذوا التراب من تحت قدمَيك "(٧).

وهكذا كان الإمام (ع) سيف الإسلام الذي لا ينبو ، يوجهه الرســـول (ص) حيث يُحدق الخطر بالرسالــة ، وقد بعثه مرتين إلى اليمن - حسب الأخبار - حيث أسلمت على يَديه قبائلها ، وبالذات قبائل همدان .

^ بيعة غدير خم :

وفي السنة العاشرة بعد الهجرة - حين عزم النبي (ص) على المسير إلى مكة وأداء الحج الأخير الذي سمي " بحجة الوداع " - كان الإمام (ع) في اليمن أو نجران .

فكتب إليه الرسول (ص) بأن يوافيه مكة حاجّاً ، وقد أُوحي إلى النبي (ص) أنه راحل عن أمته .

فلما قفلوا عن مكة راجعين ، أوقف الرسول الركب بمنطقة تسمى " بغدير خم " حيث نزلت عليه الآية الكريمة :

{ يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللـه يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ } (المائدة/٦٧) .

فقام في الناس خطيباً وقال في مستهل حديثه : " أيها الناس يوشك أن أُدعى فَأُجيب " .

وأضاف : " إني تارك فيكم الثقلَين : كتاب اللـه ، وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، فإنهما لن يفترقا حتى يَردا علَيَّ الحوض " .

ثم قال بعد أن أخذ بيد علي ورفعها :

" ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم " ؟

قالوا : بلى يا رسول اللـه ، فقال :

" من كنت مولاه فعليٌّ مولاه . اللـهم والِ من والاه وعادِ من عاداه " .

ثم أفرد النبي لعلي خيمة وأمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين ، ففعل ذلك كلهم حتى من كان معه من أزواجه ونساء المسلمين .

فأنزل اللـه تعالى على رسوله ما يعتبر إعلاناً عن خاتمة الوحي :

{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً } (المائدة/٣)

.

وانتشرت في الآفاق أنباء استخلاف النبي لوصيه الإمام علي !. ولكن النبي (ص) الذي كان أخبر قائدٍ بالناس من حوله ، كان يعلم أن الكثير من التمهيد يحتاج إليه المسلمون ، خصوصاً وقد تكاثر عدد الوصوليين بينهم بعد فتح مكة ، وإن الكثيرين منهم يطالبون عليّاً بأوتار الجاهلية ، فلا يقبلون بولاية الإمام (ع) بسهولة .

كما أحيط علماً بالمؤامرات التي كانت تجري في البلاد للسيطرة على الحكم من بعده ، وكانت "قريش" التي دخلت - الآن - في الإسلام تتخذ منه أداة جديدة لسلطتهم على الجزيرة العربية ، كانت مركز هذه المؤامرة . ومن هنا لم يدع الرسول (ص) مناسبة إلاّ وأعلن فيها عن أن وصيه الذي اختاره اللـه للولاية من بعده إنما هو الإمام علي (ع) ، لتبقى الأقلية المؤمنة وفية بعدها مع اللـه والرسول ، وملتفّة حول قيادة الإمام (ع) وتحافظ على الخط السليم للامة ، وتكون ميزاناً للحق والباطل ، ومقياساً سليماً لمتغيرات الحوادث .

من هنا نجد النبي (ص) يسعى حتى آخر لحظة من حياته في هذا السبيل ، فقد جاء في رواية البخاري - من كتاب المرض والطب - أنه اجتمع عند رسول اللـه رجال فيهم : عمر بن الخطاب ، فقال لهم النبي (ص) هلموا أكتب لكم كتاباً لاتضلوا بعده أبداً . فقال عمر بن الخطاب : " إن النبي غلبه الوجع ، وعندنا القرآن ، حسبنا كتاب اللـه " فاختلف الحاضرون واختصموا فأمرهم النبي بالإنصراف (٨).

وفي بعض روايات البخاري قال بعضهم ما شأنه أهجَرَ ؟! استفهموه فذهبوا يرددون عليه فقال : دعونـــي ، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه ، وأوصاهم بثلاث :

إخراج المشركين من جزيرة العرب ، وأن يجيزوا الوفود بمثل ما كان يجيزهم ، وسكت الراوي عن الثالثة أو قال : إني نسيتها (٩).

وواضح أن المسلمين لم يكونوا لينسوا وصية نبيّهم الأخيرة ، إلاّ أنها كانت متعلقة بالوضع السياسي بعد النبي مما يستدعي تناسيه رغَباً أو رَهَباً .

والواقع أن الخليفة الثاني بَرَّر ذات مرة اتّهامه للنبي (بأنه قد غلبه الوجع) بأنه لم يكن يرى مصلحة في استخلاف النبي للإمام علي .. فقد جاء في شرح ابن أبي الحديد : روى أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب تاريخ بغداد مسنداً عن ابن عباس قال : دخلت على عمر في أول خلافته وقد أُلقي له صاع من تمر على خصفة ، فدعاني إلى الأكل فأكلت تمرة واحدة ، وأقبل يأكل حتى أتى عليه ، ثم شرب من جرٍّ كان عنده واستلقى على مرفقة له وطفق يحمد اللـه يكرر ذلك ، ثم قال : من أين جئت يا عبد اللـه ؟ قلت : من المسجد . قال : كيف خلفت ابن عمك - فظننته يعني عبد اللـه بن جعفر - قلت : خلفته يلعب مع أتراب له . قال : لم أعْن ذلك ، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت ، قلت : خلفته يمتح بالْقُرَب على نخيلات من فلان وهو يقرأ القرآن . قال : يا عبد اللـه عَلَيَّ دماء البدن إنْ كتمتنيها ، هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة ؟. قلت : نعم . قال : أيزعم أن رسول اللـه نص عليه ؟. قلت : نعم ، وأزيدك أني سألت أبي عمَّا يدَّعيه فقال : صدق . فقال عمر : لقد كان من رسول اللـه في أمره ذروٌ من قولٍ لا يُثبت به حجة ولا يقطع عذراً ، ولقد كان يرجع في أمره وقتاً ما ، ولقد اراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعتُ من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام . لا ورب هذه البنيَّة لاتجتمع عليه قريش أبداً ، ولو وَلِيهَا لانتقضتْ عليه العرب من أقطارها . فعلم رسول اللـه أني علمت ما في نفسه فأمسك وأبى اللـه إلاّ إمضاء ما حتم (١٠).

(١) حديث مجمع عليه بين المسلمين .

(٢) سيرة الأئمة : ص ٢٢٩ .

(٣) سيرة الأئمة الاثنى عشر ص ٢٣٦ عن مجموعة النسائي في خصائصه . والحاكم في مستدركه وطائفة من العلماء .

(٤) المصدر : ص ٢٥٣ .

(٥) المصدر : ص ٢٥٩ نقلا عن فضائل الخمسة : ص ٢٢٩ .

(٦) المصدر : ص ٢٦٣ - ٢٦٤ نقلاً عن مجمع البيان عن الإمام الصادق (ع) .

(٧) المصدر : ص ٢٦٢ .

(٨) المصدر : ص ٢٧٦ .

(٩) المصدر : ص ٢٧٧ .

(١٠) راجع كتاب " قضاء أمير المؤمنين " : ص ٣٢٠ .

فهرس الكتاب

الفصل الثالث: الإمام علي (ع) يواجه المحنة

أوصى النبيُّ (ص) الإمام (ع) بأنه سيعاني من أمته الكثير ، وبأنهم لا يمتثلون أوامره فيه وفي سائر أهل بيته ، فعليه أن يتسلح بالصبر . ثم الْتَحق النبيُّ (ص) بالرفيق الأعلى ، وفاضت نفسه ورأسه الشريف على صدر الإمام (ع) .

واشتغل الإمام بمراسم الغسل والتكفين والدفن ، كما يقول (ع) :

" ولقد قبض سول اللـه (ص) ، وإن راسه لَعَلَى صدري ، ولقد سالَتْ نفسُه في كفي ، فأمررتهُا على وجهي ، ولقد وَليتُ غسله (ص) والملائكة أعواني ، فضجَّت الدار والأوفينة ، ملأٌ يهبط وملأٌ يعرج ، وما فارقت سمعي هينمةٌ منهم ، يصلُّون عليه حتى وارياه في ضريحه ، فمن ذا أحق به مني حيّاً وميتاً " (١).

إلاّ أن هناك مَن كان يفكر في كيفية الإنقلاب . ويبدو أن ثلاثة خطوط ارتسمت على الخارطة السياسية بعد وفاة النبي (ص) مباشرة هي :

أولا : خط الإمام علي (ع) ومعه جمهور الأنصار وثلة من المهاجرين .

ثانياً : جناح سائر المهاجرين ، وثلة من الأنصار خصوصاً من قبيلة الخزرج .

ثالثاً : حزب الأمويين بقيادة أبي سفيان .

وبالرغم من أن الخط الثالث ، كان منبوذا ، ولاتزال ذكريات بدر وأُحد حيةً في نفوس المسلمين ، وبالتالي لم يكن لرموز هذا الخط الجرأة بأن تطرح نفسها كسلطة سياسية ، إلاّ أن انتشار شبكتها في الجزيرة وتراكم التجربة القيادية لديها ، وامتلاكها لكثير من الرجال الأشداء ، والأموال الطائلة ، كل ذلك كان يجعلها الغائب الشاهد في كل قرار سياسي للأمة ، حيث كانت أكبر قوة ضاغطة من وراء الأحداث .. ويبدو للباحث في التاريخ أن أية قوة سياسية كانت تتحالف مع خط أبي سفيان ، كان بامكانها أخذ أزِمَّة الأمور بيديها . وإن أبا سفيان حاول في البدء التحالف مع الإمام علي (ع) فرفضه ، فتحالف مع بعض عناصر الخط الثاني الذي كان يعتبر معتدلاً تجاهه ، إذا قيس بتصلُّب الإمام علي (ع) ومدى شدته في ذات اللـه .

فقد جـاء في بعض النصوص التاريخية ، أن أبا سفيان مشى إلى الإمام (ع) بعـد وفـاة الرسـول ، فحثَّـه

على المطالبة بحقه ، ووَعَده بأن يملأها خيلاً ورجالاً . فأبى (ع) ذلك بقوة ، والقى خطاباً هامّاً رغَّب الناس في الآخرة وزهَّدهم في الدنيا ، جاء في أوله :

" أيها الناس ! شُقُّوا أمواج الفتن بسُفن النجاة ، وعرِّجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة . افلح من نهض بجناح ، أو استسلم فأراح . هذا (الدنيا أو الملك) ماء آجن ، ولقمة يغصُّ بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها ، كالزارع بغير أرض ، فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت " (٢).

وهكذا غلب الخط الثاني والذي اتَّفقت قياداته على بيعة الخليفة الأول على السلطة ، وكانت قيادات الجيش متفقة مع هذا الخط في الأغلب . وباستطاعتنا أن نفسر سيطرة هذا الخط بأنه سيطرة للخط العسكري . فبالرغم من أن الإمام عليّاً كان أبرز القيادات العسكرية في ذلك اليوم ، حيث حمل راية الإسلام في أكثر المعارك ، إلاّ أن أغلب أنصاره كانوا من المحرومين والمستضعفين كالأنصار .

وهكذا يمكننا أن نفسر تسيير النبي (ص) لجيش اسامة إلى خارج العاصمة - بل خارج الجزيرة العربية - وقد ضم إليه كبار الأصحاب فيما بينهم أنصار وقيادات الخط الثاني ، إلاّ أنهم لم ينفِّذوا جيش أسامة ، وتخلفوا عنه ، سواء عن سابق إصرار ومعرفة بالهدف من بعثهم فيه ، أو لاشفاقهم على حالة الرسول كما زعموا .

وقد قال الرسول (ص) :

" نفِّذوا جيش اسامة ، لعن اللـه مَن تخلَّف عن جيش أسامة " .

وقد جاء تفاصيل ذلك في نص صريح مأثور عن الإمام أمير المؤمنين (ع) جاء فيه :

" ثم أمر رسول اللـه بتوجيهه الجيش الذي وجَّهه مع أسامة بن زيد عندما أحدث اللـه به المرض الذي توفاه فيه . فلم يَدع النبيُّ (ص) أحداً من أبناء العرب ولا من الأوس والخزرج وغيرهم من سائر الناس ممن يخاف على نقضه ومنازعته ، ولا أحداً ممن يراني بعين البغضاء ممن قد وترته بقتل أبيه أو أخيه أو حميمه إلاّ وجَّهه في ذلك الجيش ، ولا من المهاجرين والأنصار والمسلمين وغيرهم والمؤلفة قلوبهم والمنافقين ، لتصفو قلوب من يبقى معي بحضرته ، ولئلا يقول قائل شيئا مما أكرهه ، ولا يدفعني دافع عن الولاية والقيام بأمر رعيته من بعده . ثم كان آخر ما تكلم به في شيء من أمر أمته أن يمضي جيش أسامة ولا يتخلف عنه أحد ممن أنهض معه ، وتقدم في ذلك أشد التقدم ، وأوعز فيه أبلغ الإيعاز ، وأكد فيه أكثر التأكيد .

فلم أشعر بعد أن قبض النبي (ص) إلا برجالٍ من بَعْثِ أسامة بن زيد وأهل عسكره قد تركوا مراكزهم ، وأخلّوا بمواضعهم ، وخالفوا أمر رسول اللـه (ص) فيما أنهضهم له وأمرهم به ، وتقدم إليهم من ملازمة أميرهم ، والسير معه تحت لوائه حتى ينفذ لوجهه الذي أنفذه إليه ، فخلفوا أميرهم مقيماً في عسكره ، وأقبلوا يتبادرون على الخيل ركضاً إلى حل عقدة عقدها اللـه عزَّ وجلَّ ورسوله لي في أعناقهم ، فحلّوها ، وعهد عاهدوا اللـه ورسوله فنكثوه ، وعقدوا لأنفسهم عقداً ضجَّت به أصواتهم ، واختصت به آراؤهم ، من غير مناظرة لأحد من بني عبد المطلب ، أو مشاركة في رأي ، أو استقالة لما في أعناقهم من بيعتي .

فعلوا ذلك ، وأنا برسول اللـه مشغول ، وبتجهيزه عن سائر الأشياء مصدود ، فإنه كان أهمها وأحق ما بدئ به منها ، فكان هذا يا أخا اليهود أقرح ما ورد على قلبي مع الذي أنا فيه من عظيم الرزية ، وفاجع المصيبة ، وفَقْدِ من لا خلف منه إلاّ اللـه تبارك وتعالى ، فصبرت عليها إذ أتت بعد أختها على تقاربُها ، وسرعة اتِّصالها .

ثم التفت (ع) إلى أصحابه فقال : أليس كذلك ؟. قالوا : بلى يا أمير المؤمنين عليك السلام (٣).

كيف طالب الإمام (ع) بحقه :

ولم يشأ الإمام علي (ع) أن يحمل السيف ، ويأخذ حقه بقوة السلاح لأمرين - كما يبدو للباحث في تاريخه - وهما :

أولاً : لأنه لم يجد تجاوباً كافياً لدى المؤيدين له ، مما كان يجعل مطالبته نوعا من المغامرة .

ثانيا : خشيته على الإسلام أن يرتد عنه أولئك الذين لَمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم .

ولقد أشار (ع) إلى هذين الأمرين في أكثر من مناسبة ، نذكر منها قوله - في حديث مفصل يأتي إن شاء اللـه - : فقلت يا رسول اللـه فما تعهد إليَّ إذا كان (ذلك) ؟ فقال :

" إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد أعواناً كُفَّ يدَك ، واحقن دمك حتى تلحق بي مظلوماً " (٤).

وقال - وهو يوضح موقفه من السلطة عموماً بعد بيعة عثمان - :

" لقد علمتم : أني أحق الناس بها من غيري ، ووالله لأَسَلّمَنَّ ما سلمتْ أمورُ المسلمين ولم يكن فيها جور إلاّ عَلَيَّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه " (٥).

ولقد طالب الإمام (ع) بحقه ومشى إلى المهاجرين والأنصار ، وحرّضهم على الدفاع عنه . وأنهض كبار شيعته وأهل بيته لإعلان حقه ، مما جعل الناس يعرفون بخطأ مبادرتهم للبيعة !. بل جعل الخليفة الثاني يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقَى الله المسلمين شرَّها ، فمن عاد إليها فاضربوا عنقه .

إن البعض يحاول أن يوهمنا أن انتقال السلطة إلى الخليفة الأول تَمَّ بهدوء ، من أجل أن يضفي على عهده صبغة القداسة والعصمة عن الخطأ . ولعل منشأ هذا الرأي الحمية للإسلام ، بما يخالف واقعيات التاريخ .

والواقع أن خلط الدين بالتراث ، ومحاولة تقديس الماضي بإيجابياته وسلبياته هو المسؤول عن مثل هذه النظرة الساذجة .

إن عشرات النصوص الدينية والتاريخية ، التي لايرقى إليها أدنى شك ، تؤكد أن مَن كان حول الرسول لم يكونوا إلاّ بشراً ، فيهم الصالحون ، وفيهم الكثير من المنافقين والفاسقين ، وكان فيهم من قال عنه الإمام (ع) :

" لقد رأيت أصحاب محمد (ص) فما أرى أحداً يشبههم منكم !. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، وقد باتوا سُجَّداً وقياماً ، يراوحون بين جباههم وخدودهم ، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم " (٦).

كما كان فيهم من عشق السلطة ، وسعى إليها على تلال من جثث القتلى دون أي وازع من دين أو ضمير ، وكان فيهم مَنْ أكثَر من الكذب حتى حذَّر الرسول (ص) من ذلك قائلا :

" ستكثر من بعدي القالة ، فمن كذَب عَلَيَّ فليتبوَّأ مقعده من النار " .

وكان فيهم من قال عنه الله سبحانه :

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ } (آل عمران/١٤٤)

وقال عز من قائل أيضاً :

{ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الاَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } (التوبة/١٠١)

وقال تعالى :

{ وَيَــوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الاَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُــمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِريــنَ } (التوبة/٢٥)

وقال سبحانه :

{ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللـه بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللـه وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذلِكَ فَضْلُ اللـه يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللـه وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (المائدة/٥٤).

وقد نقل المحدِّثون جميعاً عن الرسول (ص) كثيراً من النصوص التي تؤكد أن بعض أصحابه ينحرفون من بعده .. إذن كيف يمكن تصور القداسة فيهم ، وأنهم سلَّموا السُّلطة إلى أهلها من دون صراع ، علماً بأن الروايات التاريخية الصحيحة شهدتْ بوجود هذا الصراع على أشده ، منذ يوم السقيفة ؛ ثم ولـــم يلبث أن اصطبغ الصراع بلون الدم في حادثة مالك بن نويرة ، الذي أبى إعطاء الزكاة للخليفة الأول ، فبعث إليه قائداً عربيّاً عريقاً في الجاهلية ممن انضمَّ إلى الرسالة بعد الفتح ، وأضحى سيفاً مسلولاً بيد الدولة ، وهو خالد بن الوليد ، الذي فتك بمالك وانتهك عرضه واقتعل بزوجته ليلة قتلِه وجعله عبرة لكل القبائل التي ربما فكرت بالتمرد على السلطة الجديدة .. ثم باركت عملَه هذه السلطة الجديدة ؟..

واستمرت سلسلة الصراعات حتى انتهت بالحروب الداخلية التي جرت في عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) ، فلولا وجود خلفيات لهذه الصراعات لم تكن لتظهر بتلك الصورة الدموية .

بيد أن الباحث يقتنع من خلال عشرات الشواهد التاريخية أن الإمام عليّاً (ع) لم يكن يرغب في تحويل الصراع إلى تنافس سياسي على السلطة ، ولا يرضى بتصعيده إلى حرب دامية ، ولا حتى باعتزال الساحة السياسية ، بل كان يشارك الخلفاء في كافة الشؤون ، ويلي أمورهم ويحل معضلاتهم .

و من جهة ثانية ، كان الخلفاء يذعنون لفضل الإمام (ع) ، ويعملون بنصائحه وقضائه ويشيدون به في أكثر من مناسبة .. فلقد شاع قول الخليفة الأول .. أقيلوني فلست بخيركم وعليٌّ فيكم .

وتواتر الحديث عن الخليفة الثاني : " لولا عليٌّ لَهلك عُمَر " .
حيث قالها في أكثر من مائة مناسبة . وقال أيضاً : " معضلة ليس لها أبو الحسن " .
وإنما قالها عمر لمزيد من المشاكل التي حلها الإمام (ع) وأراح منها المسلمين .
وقد ثبت تاريخيّاً : أن أصحاب الإمام (ع) قد تولوا كثيراً من المناصب الإدارية والعسكرية للدولة ، فسلمان تولى ولاية فارس في المدائن ، وهو من أقرب أنصار الإمام (ع) وأشهدهم إخلاصاً له . والإمام الحسن المجتبى (ع) شارك في جيش الإسلام الذي فتح اللـه على يديه بلاد الفرس ، كما أن الإمام نفسه استخلفه الخليفة الثاني عند ذهابه إلى فلسطين .
ونستوحي من حديث مأثور عن الإمام الصادق (ع) أن الحكم في عهد الخليفة الأول والثاني كان يشبه حكماً ائتلافيّاً بين الأجنحة المختلفة ، بينما استبد جناح بني أمية بالحكم في عهد الخليفة الثالث ، وخلص الحكم - بعد الإنتفاضة وقتل الخليفة - للجناح الأول الذي كان يقوده الإمام علي ، وأولي البصائر من المهاجرين والأنصار : ولذلك ثارت ثائرة أصحاب عُثمان وتمرد الأمويون ومَن اتَّبعهم على حكم الإمام علي (ع) .

سيدة النساء النصيرة الأولى للإمام عليه السلام :

هكذا أُفرزت الأجنحة السياسية بوفاة الرسول (ص) ، وحُددت ملامح المعارضة الرسالية التي طالبت بعودة الإمام عليٍّ إلى الحكم لانه الأفضل ، ولان الرسول الذي لاينطق عن الهوى قد أمر بذلك وشدد أمره بأخذ العهود والمواثيق .
وكانت بنت رسول اللـه - فاطمة الزهراء عليها السلام - أشد المدافعين عن الإمام (ع) وأقواهم ، وبالرغم من أنها لم تعش بعد والدها طويلاً ، لانها صُفِّيت ، وكانت أول من يلتحق بأبيها ، إلا أن معارضتهـــا الشجاعة فتحت أبواب المعارضة أمام أنصار الإمام (ع) وأعطتهم المنهج وشحنت إرادتهم بالعزم ، خصوصاً بعد استشهادها ووصيتها بأن يُخْفَى محلُّ دفنها ، ولا يحضر جنازتها مَنْ ظَلَمها ..
ولقد أصبحت شهادة فاطمة (ع) راية ظلامة حارب تحت ظلها كل المحرومين عبر التاريخ ..
وإن غيابها المبكِّر وبتلك الصورة الفجيعة ، جدد أحزان المسلمين بفقد الحبيب محمد (ص) ، وأثار في القلوب المجروحة بمصيبة الرسول زوبعة من العواطف الصادقة التي تحولت مع الزمن إلى قوة تحدٍّ لاتقهر ..

لقد حفرت كلماتها المضيئة في أفئدة الناس أنهراً من الحماس والتحدي الرسالي . فقد قالت لنساء الأنصار حين زرنها في مرض موتها وقلن لها : كيف أصبحت يا بنت رسول اللـه ؟ قالت لهنَّ فيما قالت : لقد زحزحوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، والطبين بأمر الدنيا والدين ، أَلاَ ذلك هو الخسران المبين ، ومضت قائلة :

" وما الذي نقموا من أبي الحسن ، نقموا منه - واللـه - نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمُّره في ذات اللـه " .

ثم قالت : " استبدلوا واللـه الذُّنابي بالقوادم ، والعجز بالكامل ، فرغماً لِمَعاطس قومٍ يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً ، ألاَ إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون .

ويحهم ، أفمن يَهدي إلى الحق أحقُّ أن يُتَّبع أمَّن لايَهِدّي إلا أن يُهْدَى فمالكم كيف تحكمون " (٧).

أصحاب النبي (ص) يدافعون عن الإمام (ع) :

ولكن .. كيف دافع أصحاب النبي عن حق الإمام في الخلافة ؟.

الكتب التاريخية حفظت لنا عشرات الحوادث في ذلك . بيد أن القصة التالية تبدو جامعة حيث احتج كبار الأصحاب على تغيير السلطة بأدلة قوية . كما أنها تروي أيضاً جانباً هامّاً من تاريخ الإمام علي (ع) .. والإمام الصادق يروي تفاصيل هذه الحادثة التاريخية في حديث مفصل نُثبته هنا ليعكس لنا حالة الأمة آنذاك .

وحيث اجتمع فريق من أصحاب رسول اللـه ، فيهم سلمان الفارسي ، وأبوذر ، والمقداد بن الاسود ، وبريرة الأسلمي ، وعمار بن ياسر ، وآخرون إلى الإمام (ع) فقالوا :

يا أمير المؤمنين تركتَ حقّاً أنت أحق به وأولى منه ، لأنا سمعنا رسول اللـه (ص) يقول : " عليٌّ مع الحق ، والحق مع علي ، يميل مع الحق كيف مال " .

ولقد هممنا أن نصير إليه فننزله عن منبر رسول اللـه (ص) فجئناك نستشيرك ونستطلع رأيك فيما تأمرنا . فقال أمير المؤمنين (ع) :

" وأيم اللـه لو فعلتم ذلك لَمَا كنتم لهم إلاّ حرباً ، ولكنكم كالملح في الزاد ، وكالكحل في العين ، وأيم اللـه لو فعلتم ذلك لأتيتموني شاهرين أسيافكم مستعدين للحرب والقتال ، إذاً لأتوني فقالوا لي بايع ، وإلاّ قتلناك ، فلابدّ من أن أدفع القوم عن نفسي

. وذلك أن رسول اللـه (ص) أوعز إليَّ قبل وفاته وقال لي : يا أبا الحسن إن الأمة ستغدر بك بعدي ، وتنقض فيك عهدي . وإنك مني بمنزلة هارون من موسى ، وإن الأمة من بعدي بمنزلة هارون ومن اتَّبعه ، والسامري ومن اتَّبعه " .

فقلت يا رسول اللـه فما تعهد إليَّ إذا كان ذلك ؟. فقال :

" إن وجدت أعواناً فبادر إليهم وجاهدهم ، وإن لم تجد أعواناً كُفَّ يدَك واحقنْ دمَك حتى تلحق بي مظلوماً " .

ولما توفي رسول اللـه (ص) اشتغلتُ بغسله وتكفينه والفراغ من شأنه ، ثم آليتُ يميناً أن لا أرتدي إلاّ للصلاة حتى أجمع القرآن ، ففعلت . ثم أخذت بيد فاطمة وابْنَيَّ الحسن والحسين فدرت على أهل بدر وأهل السابقة فناشدتهم حقي ودعوتهم إلى نُصرتي ، فما أجابني منهم إلاّ أربعة رهط منهم سلمان وعمار والمقداد وأبوذر (٨).

ولقد راودت في ذلك تقييد بيّنتي ، فاتقوا اللـه على السكوت لِمَا علمتم من وَغْر صدور القوم ، وبُغضهم لله ولرسوله ولأهل بيت نبيه (ص) . فانطلقوا بأجمعكم إلى الرجل فعرِّفوه ما سمعتم من قول رسولكم (ص) ليكون ذلك أوكد للحجة ، وأبلغ للعذر ، وأبعد لهم من رسول اللـه (ص) إذا وردوا عليه .

فسار القوم حتى أحدقوا بمنبر رسول اللـه (ص) وكان يوم الجمعة ، فلما صعد أبو بكر المنبر قال المهاجرون للأنصار تقدموا فتكلّموا ، وقال الأنصار للمهاجرين : بل تكلموا أنتم ، فإن اللـه عزَّ وجلَّ أدناكم في كتابه إذ قال اللـه :

{ لَقَد تَابَ اللـه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ } (التوبة/١١٧)

قال ابان : فقلت له : يابن رسول اللـه ، إن العامَّة لاتقرأ كما عندك ، فقال : وكيف تقرأ يا ابان ؟ قال : إنها تقرأ .

{ لَقَد تَابَ اللـه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ } (التوبة/١١٧)

فقال : " ويلهم وأي ذنب كان لرسول اللـه (ص) حتى تاب اللـه عليه منه ، إنما تاب اللـه به على أمته ".

فأول من تكلم به خالد بن سعيد بن العاص ، ثم باقي المهاجرين ، ثم من بعدهم الأنصار . وروي أنهم كانـــوا غُيَّباً عن وفاة رسول اللـه (ص) فقدِموا وقد تولى أبو بكر وهم يومئذ أعلام مسجد رســـول اللـه (ص)

فقام خالد بن سعيد بن العاص (٩) وقال :

إتقِ اللــه يا أبا بكر ، فقد علمتَ أن رسول اللــه (ص) قال ونحن محتوشوه يوم قريظة حين فتح اللــه له وقد قَتَلَ عليٌّ يومئذ عدة من صناديد رجالهم ، وأولي البأس والنجدة منهم :

" يا معاشر المهاجرين والأنصار ، إني موصيكم بوصية فاحفظوها ومودعكم أمراً فاحفظوه ، ألاَ إن علي بن أبي طالب (ع) أميركم بعدي ، وخليفتي فيكم ، بذلك أوصاني ربي ، ألاَ وإنكم إن لم تحفظوا فيه وصيتي وتوازروه وتنصروه اختلفتم في أحكامكم ، واضطرب عليكم أمرُ دينكم ، وَ وَلِيَكُمْ شِرارُكم . ألاَ إن أهل بيتي هم الوارثون لأمري ، والعالِمون بأمر أمتي من بعدي . اللــهم مَن أطاعهم من أمتي ، وحفظ فيهم وصيتي ، فاحشرهم في زُمرتي ، واجعل لهم نصيباً من مرافقتي ، يدركون به نور الآخرة . اللــهم ومَن أساء خلافتي في أهل بيتي فاحرمه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض " .

فقال له عمر بن الخطاب : اسكت يــا خالد فلست من اهل المشورة ، ولا ممن يقتدى برأيه . فقال خالد : اسكت يا ابن الخطاب فإنك تنطق عن لسان غيرك . وأيم اللــه لقد علمتْ قريش أنك من أَلأَمها حسباً ، وأدناها منصباً ، وأخسّها قدراً ، وأخملها ذِكْراً ، وأقلهم غَناء عن اللــه ورسلوه . وأنك لَجبان في الحروب ، بخيل بالمال ، لئيم العنصر ، مالك في قريش من فخر ، ولا في الحروب من ذِكْر ، وإنك في هذا الأمر بمنزلة الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إني بريء منك ، إني أخاف اللــه رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدَينِ فيها ، وذلك جزاء الظالمين ، فأبلس عمر ، وجلس خالد بن سعيد .

٢- ثم قام سلمان الفارسي (١٠) وقال : كرديد ونكرديد (وندانيد جه كرديد) أي فعلتم ولم تفعلوا (وما علمتم ما فعلتم) وامتنع من البيعة قبل ذلك حتى وُجِيءَ عنقه ، فقال : يا أبا بكر إلى من تسند أمرك إذا نــزل مالا تعرفه ، وإلى من تفزع إذا سئلت عما لا تعلمه ، وما عذرك في تقدم من هو أعلم منك وأقــرب إلـــى رسول اللــه (ص) وأعلم بتأويل كتاب اللــه عزَّ وجلَّ وسنّة نبيه ، ومَن قدَّمه النبي (ص) في حياته ، وأوصاكم به عند وفاته ، فنبذتم قوله ، وتناسيتم وصيته ، وأخلفتم الوعد ، ونقضتم العهد ، وحللتم العقد الذي كان عقده عليكم من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد حذراً من مثل ما أتيتموه ، وتنبيهاً للأمة على عظيم ما اجترحتموه من مخالفة أمره ، فعن قليل يصفو لك الأمر وقد أثقلك الوزر ونقلت إلى قبرك ، وحملت

معك ما اكتسبت يداك ، فلو راجعت الحق من قُرب وتلافيت نفسك ، وتبت إلى اللـه من عظيم ما اجترمت ، كان ذلك أقرب إلى نجاتك يوم تفرد في حفرتك ويسلمك ذوو نصرتك ، فقد سمعت كما سمعنا، ورأيت كمـــا رأينـــا ، فلم يردعك ذلك عمـــا أنت متشبث به من هـــذا الأمـر الذي لا عذر لك في تقلُّـده ولا حـــظَّ للدين والمسلمين في قيامك به ، فاللـه اللـه في نفسك ، فقد أعذر من أنذر ، ولا تكن كمن أدبر واستكبر .

٣- ثم قام أبو ذر فقال : يا معاشر قريش أصبتم قباحةً وتركتم قرابـــــة ، واللـه لترتدنَّ جماعة من العـــرب (١١) ولتشكن في هذا الدين ، ولو جعلتم الأمر في أهل بيت نبيكم ما اختلف عليكم سيفان . واللـه لقد صارت لمن غلب ولتطمحنَّ إليها عين من ليس من أهلها ، وليسفكن في طلبها دماء كثيرة ، فكان كما قال أبو ذر رضوان اللـه عليه .

ثم قال لقد علمتم وعلم خياركم أن رسول اللـه (ص) قال :

" الأمر بعدي لعليِّ ثم ، لإبنَيَّ الحسن والحسين ، ثم للطاهرين من ذُرِّيتي " .

فأطرحتم قول نبيكم وتناسيتم ما عهد به إليكم ، فأطعتم الدنيا الفانية ، وبعتم الآخرة الباقية التي لايهرم شبابها ، ولا يزول نعيمها ، ولا يحزن أهلها ، ولا يموت سكانها ، بالحقير التافه الفاني الزائل ، وكذلك الأمم من قبلكم كفرت بعد أنبيائها ، ونكصت على أعقابها ، وغيرت وبدّلت ، واختلفت ، فساوَيْتُموهم حذو النعل بالنعل ، والقذة بالقذة وعما قليل تذوقون وبال أمركم ، وتجزون بما قدمت أيديكم ، وما اللـه بظلام للعبيد .

٤- ثم قام المقداد بن الأسود وقال : ارجع يا أبا بكر عن ظلمك ، وتب إلى ربك ، والزم بيتك ، وابكِ على خطيئتك ، وسلم الأمر لصاحبه الذي هو أولى به منك ، فقد علمت ما عقده رسول اللـه (ص) في عنقك من بيعته ، وألْزَمك من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد وهو مولاه ، ونبّه على بطلان وجوب هذا الأمر لك ولمن عضدك عليه بضمه لكما إلى علَم النفاق ومعدن الشنآن والشقاق عمرو بن العاص الذي أنزل اللـه تعالى فيه على نبيه (ص) :

{ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ } (الكَوثَر/٣)

فلا اختلاف بين أهل العلم أنها نزلت في عمرو - وهو كان أميراً عليكما وعلى سائر المنافقين في الوقت الذي انفذه رسول اللـه (ص) في غزاة ذات السلاسل (١٢) وإن عمراً قلدكما حرس عسكره فمن الحرس إلى الخلافة ؟ إتّق اللـه وبادر الاستقالة قبل

فوتها ، فإن ذلك اسلم في حياتك وبعد وفاتك ، ولا تركن إلى دنياك ، ولا تغررك قريش وغيرها ، فعن قليل تضمحل عنك دنياك ، ثم تصير إلى ربك فيجزيك بعملك .

وقد علمت وتيقَّنت أن عليَّ بن أبي طالب (ع) صاحب هذا الأمر بعد رسول اللـه (ص) فسلِّمه إليه بما جعله اللـه له فإنه أتم لسترك وأخفُّ لوزرك ، فقد واللـه نصحت لك إن قبلت نُصحي ، وإلى اللـه ترجع الأمور .

٥- ثم قام بريدة الأسلمي(١٣) فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماذا لقي الحق من الباطل يا أبا بكر ؟ أنسيت أم تناسيت أم خدعتك نفسك وسوّلت لك الأباطيل ؟ أولم تذكر ما أمرنا به رسول اللـه (ص) من تسمية علي (ع) بإمره المؤمنين ، والنبي بين أظهرنا ، وقوله في عدة أوقات : هذا أمير المؤمنين ، وقاتل القاسطين ؟ فاتَّقِ اللـه وتَدارَكْ نفسك قبل أن لا تُدركها وأنقذها مما يهلكها ، واردد الأمر إلى من هو أحق به منك ، ولا تتمادَ في اغتصابه . وراجع وأنت تستطيع أن تراجع ، فقد محصتُك النصح ، ودللتك على طريق النجاة ، فلا تكونن ظهيراً للمجرمين .

٦- ثم قام عمار بن ياسر فقال : يا معاشر قريش يا معاشر المسلمين ، إن كنتم علمتم وإلاّ فاعلموا أن أهـــل بيت نبيكم أولى به وأحق بارثه ، وأقْوَمُ بأمور الدين وآمن على المؤمنين ، وأحفظ لملته ، وأنصح لأمته ، فمروا صاحبكم فليرد الحق إلى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ، ويضعف أمركم ، ويظفر عدوكم ، ويظهر شتاتكم وتعظم الفتنة بكم ، وتختلفون فيما بينكم ، ويطمع فيكم عدوكم ، فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الأمر منكم ، وعلي من بينهم وليكم بعهد اللـه وبعهد رسوله ، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عندما سدَّ النبي (ص) أبوابكم التي كانت إلى المسجد فسدها كلها غير بابه (١٤) وإيثاره إياه بكريمتـــه فاطمة دون سائر من خطبها إليه منكم ، وقوله (ص) : " أنا مدينة العلم وعليٌّ بابهـا ، فمـــن أراد الحكمة فليأتها من بابها " .

وأنتم جميعاً مصطرخون فيما أشكل عليكم من أمور دينكم إليه ، وهو مستغنٍ عن كل أحد منكم ، إلى ما له من السوابق التي ليست لأفضلكم عند نفسه ، فما بالكم تحيدون عنه ، وتغيرون على حقه ، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، بئس للظالمين بدلاً .

أعطوه ما جعله اللـه له :

{ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ } (المائدة/٢١) .

٧- ثم قام أبي بن كعب (١٥) فقال : يا أبا بكر لا تجحد حقّاً جعله اللـه لغيرك ، ولا تكن أول من عصى رســـول اللـه (ص) في وصيّه وصفيّه ، وصدف عن أمره . أردد الحق إلى أهله تسلم ، ولا تتمـــــاد في غيـــك فتندم ، وبادر الإنابة يخفّ وزرك ولا تخصص بهذا الأمـر الذي لم يجعلـــه اللـه لك نفساً ، فتلقى وبـــال عملـــك ، فعن قليل تفارق ما أنت فيه ، وتصير إلى ربك ، فيســـألك عما جنيت { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } (فصّلت/٤٦) .

٨- ثم قام خزيمة بن ثابت فقال : أيها الناس ألستم تعلمون أن رســـول اللـه (ص) قبل شهادتي وحدي ، ولم يُرد معي غيري ؟. قالوا بلى قال : فأَشهد أني سمعت رسول اللـه (ص) يقول : " أهل بيتي يُفَرِّقون بين الحق والباطل ، وهم الأئمة الذين يُقتدى بهم " .

وقد قلت ما علمت ، وما على الرسول إلاّ البلاغ المبين .

٩- ثم قام أبو الهيثم بن التيهان فقال : وأنا أشهد على نبيّنا (ص) أنه أقام عليّاً (ع) - يعني في يوم غدير خم - . فقالت الأنصار ما أقامه إلاّ للخلافة . وقال بعضهم ما أقامه إلاّ ليعلم الناس أنه مولى من كان رسول اللـه (ص) مولاه . وأكثروا الخوض في ذلك ، فبعثنا رجالاً منَّا إلى رسول اللـه (ص) فسألوه عن ذلك ، فقال : قولوا لهم :

" علي (ع) ولي المؤمنين بعدي ، وأنصح الناس لأمتي ، وقد شهدت بما حضرني . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، إن يوم الفصل كان ميقاتاً " .

١٠- ثم قام سهل بن حنيف فحمد اللـه وأثنى عليه ، وصلى على النبيّ محمد (ص) ثم قال : يا معاشر

قريش اشهدوا على أني أشهد على رسول اللـه (ص) وقد رأيته في هذا المكان يعني الروضة ، وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) وهو يقول :

" أيها الناس هذا علي إمامكم من بعدي ، ووصيي في حياتي وبعد وفاتي ، وقاضي ديني ، ومنجز وعدي ، وأول من يصافحني على الحوض ، فطوبى لمن تبعه ونصره ، والويل لمن تخلَّف عنه وخذله " .

١١- وقام معه أخوه عثمان بن حنيف فقال : سمعنا رسول اللـه (ص) يقول :

" أهل بيتي نجوم الأرض ، فلا تتقدموهم وقَدِّموهم ، فهم الولاة بعدي " .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول اللـه وأي أهل بيتك ؟

فقال (ص) : " علي والطاهرون من وُلْده " .

وقد بيَّن (ص) فلا تكن يا أبا بكر أول كافر به ولا تخونوا اللـه والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون .

١٢- ثم قام أبو أيوب الأنصاري فقال : اتقوا اللـه عباد اللـه في أهل بيت نبيكم ، ورُدُّوا إليهم حقهم الذي جعله اللـه لهم ، فقد سمعتم مثل ما سمع إخواننا في مقام بعد مقام لنبيّنا (ص) ومجلس بعد مجلس يقول : أهل بيتي أئمتكم بعدي ، ويُومئ إلى علي (ع) ويقول : هذا أمير البررة ، وقاتل الكفرة ، مخذول مَن خذله ، منصور مَن نصره . فتوبوا إلى اللـه من ظُلمكم ، إن اللـه تَوَّاب رحيم ، ولا تتولوا عنه مدبرين ، ولا تتولوا عنه معرضين .

قال الصادق (ع) : فَأُفْحِمَ أبو بكر على المنبر حتى لم يُحْرِ جواباً ثم قال : (وَلِيْتُكم ولستُ بخيركم ، أقيلوني ، أقيلوني)(١٦) فقال عمر بن الخطاب : أنزل عنها يا لكع .

كيف قَيَّم الإمام (ع) الشيخين :

أمّا كيف عاش الإمام في عهد الشيخين ؟ وكيف قيَّم هذا العهد ؟. فلقد عاش صابراً يسعى لإصلاح الوضع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ثم أخذ يربّي جيلاً من الرساليين ، ويشكل قوة ضغط ضد الإنحرافات الإجتماعية ، وضد جناح بني أمية الذين كانوا يسعون للتسلل إلى أجهزة الحكم .

ويصف الإمام هذا العهد وصفاً دقيقاً في خطبته المعروفة بالشقشقية . ونستغني نحن بدورنا ، عن المزيد من التفاصيل بشرح فقرات هذه الخطبة التي أوجزت في كلماته ما يمكن أن تتسع لها موسوعة تاريخية .

يذكر الإمام في هذه الخطبة التي انحدرت عنه كالشقشقة تنحدر من الإبل ، ويذكر أن أبا بكر لبس الخلافة كالقميص في الوقت الذي كان يعلم أني أحق بها ، حيث إني كقطب رحى الخلافة ومثل القمة التي ينحدر عنها السيل ، ولا يبلغها الطير لشموخ محلِّها . أما إني قد أرخيت عليها ستارا ، لأن بدأت أفكر بين أمرين : هل أقدم ولا يدّ لي ، أم احجم وأصبر على ظلام أعمى يطول حتى يجعل الكبير هرماً ، والصغير أشيب ، والمؤمن كادحاً حتى يلقى ربه ؟

وقد قال بالنص (١٧):

" اما واللـه لقد تقمصها(١٨) فلان (ابن أبي قحافة) وإنه ليعلم أن محلّي منها محلُّ القُطب من الرحى ، ينحدر عني السيل ، ولا يرقى إليّ الطير ، فسدلتُ دونها ثوباً (١٩)، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت أرتئي بين أصول بيد جذّاء (٢٠)، أو

اصبر على طخية عمياء(٢١) ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكن فيها مؤمن حتى يلقى ربَّه " .

ثم يبيّن الإمام (ع) أنه رأى الصبر أقرب إلى الرشد والعقل ، فصبر صبر من أصاب عينه قذىً أو اعترضت حلقه عَظْمَةٌ لأنه يرى ما أورثه النبي (ص) من الخلافة ينتهب منه نهباً ، وظل على هذه الحال ، حتى مضى الخليفة الأول لسبيله (وتوفاه اللـه) فأوصى بالخلافة (للخليفة) الثاني .

ويتساءل الإمام (ع) : كيف كان أبو بكر يستقيل من الخلافة في حياته ثم يتشبث بها حتى بعد مماته ، إذ كانت معاهدة بينهما أن يقتسماها معاً ، ويقول بالنص :

" فرأيت أن الصبر على هاتـــا أحجـــى ، فصبرت ، وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا (٢٢) أرى تراثي نهبـــاً(٢٣) حتى إذا مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى فلان بعده " .

ثم تمثل بقول الأعشى :

شتـان مـا يومـي على كـورهـا (٢٤) * و يـــوم حـــيَّـــان أخـــي جـابـــر

" فيا عجباً !. بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لَشدَّ ما تشطَّر ضرعيها " (٢٥).

ثم يصف شخصية الخليفة الثاني ، فيقول :

لقد وضع الأول الخلافة في محل خشن إذا جرح أحدث جرحاً غليظاً ، وإذا اقتربت منه يصعب عليك مسّه ، و (بذلك) تكثر عنده الكبوات والاعتذار منها ، وقد أصبحت السلطة كالإبل الصعبة ، إذا أوقفها صاحبها أضرَّ بها حيث يخرم أذنها . وإذا تركها اقتحمت المهالك ، وهكذا أضحت السلطة ، لا تنفع الشدة فيها لأنها تضر بالناس ، ولا يصح الإهمال لأنه يفسدها .

ويبدو أن الإمام (ع) يشير بذلك إلى أن حزمه ولينه لم يكونا بقدر مناسب ولا كانا في الموقع المناسب ، بل كان شديداً في مقام يتناسب اللين . ولِيناً عندما يستوجب الشدة .

ثم يصف حال الناس الذين أصيبوا بخبط فلم يعرفوا الهدى عن الضلال ، كما ابتلوا بحالة التمرد انتهى بهم إلى حالة النفاق ، والسير على غير هدى ، ولكن مع طول المدة وشدة المحنة آثرت الصبر . ويقول الإمام (ع) :

" فصيَّرها في حوزة خشناء يغلظُ كلْمها (٢٦) ويخشنَ مسُّها ويكثر العِثار (٢٧) فيها والإعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة(٢٨)، إن أشنق(٢٩) لها خرَمَ(٣٠) وإن أسلس (٣١) لها تقحَّم (٣٢) فَمُني الناس (٣٣) - لَعَمْرُو اللـه - بخَبْطٍ(٣٤) وشِماس (٣٥) وتَلَوُّنٍ واعتراض (٣٦) فصبرت على طول المدة وشدة المحنة " .

ثم يصف الشورى التي أمر بها الخليفة الثاني حيث جعلها في ستة ..

من كان يشك في أنه أفضل من الأول !، فكيف يوضع عند أمثال الأقران المتشابهين مع بعضهم وليس معه .

وقد قَبِلَ الإمام (ع) لِمَا رآه من مصلحة الدين بالوضع ، كأنه واحد من سرب الطيور ، إذا هبطوا هبط معهم ، وإن حلقوا طار معهم .

يقول الإمام (ع) :

" حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم ، فياللـه ولِلشُّورى ، متى أعرض الريب فيَّ مـــع الأول منهم ، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر (٣٧)، لكننـــي أسففت(٣٨) إذ أسَفُّوا ، وطرت إذ طـاروا " .

ويمضي الإمام (ع) في حديثه يصف عهد الخليفة الثالث ومن بعده مما نتحدث عنه تباعاً .

كيف قتل الخليفة الثاني ؟

يرى بعض الباحثين أن الحزب الأموي كان وراء مقتل الخليفة الثاني ، خصوصاً وقد ضيق عليهم في أواخر عهده . فهذا عمرو بن العاص يتأفف ويقول : لعن اللـه زماناً صرت فيه عاملاً لعمر بن الخطاب ، والمغيرة يحقد عليه لأنه عزله عن البصرة بعد أتّهامه بالزنا ، وفي أكثر من مناسبة ، كان يخاطبه قائلا : واللـه لا أظن أبا بكرة قد كذب عليك .

ويرى عبد الرحمن بن أبي بكر أن جفينة غلام سعد بن أبي وقاص كان مشتركاً في الجريمة ، وسعد كان تربطه بالبيت الأموي قرابة حميمة ، حيث إن أمّه كانت أخت أبي سفيان .

والواقع : أن الأسباب التي يرى المؤرخون أنها كانت وراء إقدام أبي لؤلؤة على اغتيال الخليفة الثاني ، تافهة ، ولا يمكن أن تصمد أمام النقد ، حيث إن مجرد رفع

المغيرة مولاه الضريبة عليه لا تدعو لاغتيال الخليفة ، بل لاغتيال مولاه ، والذي تذهب إليه الضريبة مباشرة ، فلما اشرف الخليفة على الوفاة جعلها شـــورى بين ستة . وجعل الإمام عليّاً (ع) واحداً منهم ، أما الباقون فهم : عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص .

وكان واضحاً من طبيعة الشورى ، ومن وصية عمر بأن يؤخذ برأي الثلاثة ، الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، الذي كان يفضل صهره عثمان . وهكذا فإن الخليفة الثاني اختار خليفته بلباقة ، ولعله فعل ذلك بوحي مخاوفه السابقة من انتقال الخلافة إلى الإمام (ع) باعتباره النجم اللامع الذي إذا سطع في سماء الخلافة ، ولم يبق لغيره بريق ، أولم يقل - وهويستعرض صفات الست ، وينعت كل واحد منهم بأبشع الصفات ، إلاّ عليّاً . فيقول فيه : لله أنت لولا دعابة فيك . أما واللـه لو وليتهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء .

وهذا يعني أن خلافة علي (ع) كانت تنسف الأسس التي بناها الخليفتان من قبله ، ولعله لذلك رفض الإمام شرطاً من عبد الرحمن بن عوف عليه بأن يعمل بسيرة الشيخين . إلاّ أن الإمام (ع) حين خرج من بيت الشورى وقد تمت البيعة ، لعثمان بن عفان قال :

" نحن أهـل بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، أمان لأهل الأرض ، ونجاة لمـــن طلب ، إن لنا حقّاً إن نُعطـــه

أخذناه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل " .

(أي نكون تبعاً لغيرنا) . ثم التفت إلى ابن عوف وقال :" ليس هذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل واللـه المستعان على ما تصفون . واللـه ما ولّيته الأمر إلاّ ليردَّه عليك " (٣٩).

وقال أيضاً : " أيها الناس ! لقد علمتم أني أحق الناس بهذا الأمر من غيري . أَمَا وقد انتهى الأمر إلى ما ترون فواللـه لأُسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلاّ عليَّ خاصة ، التماسا لأجر ذلك وفضله وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه " (٤٠).

بنو أمية تتسلل إلى السلطة:

إذا كانت معادلة السلطة مالت في أخريات أيام الخليفة الثاني إلى جانب الخط الرسالي ، فإنها فسدت في عهد الخليفة الثالث ، لمصلحة الخط الأموي بعد نجاح هذا الخط في دعم خلافة واحد منهم ، وإخفاء آثار اغتيال الخليفة ، بقتل المشاركين فيها من غير حزبهم !

وهكذا لم يكن تسلل بني أمية إلى السلطة في عهد الخليفة الثالث خارجاً عن منطق الأحداث . فإنما صعد نجم الخليفة بهم ، ولعل الشرط الثالث الذي اقترحه عبد الرحمن على الإمام علي فرفضه وقبله عثمان كان محتواه إبقاء امتيازات بني أمية ، ومنها ولاية الشام لمعاوية . ولقد قال الخليفة الثاني عند وفاته لعثمان : هبها إليك كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بني أمية وبني معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء ، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً . واللـه لئن فعلَتْ لَتفعلنّ ولئن فعلتَ لَيُفعلن بك ، ثم أخذ ناصيته وقال : فإذا كان ذلك فاذكر قولي (٤١).

هكذا أوجز بعض المؤرخين الوضع في عهد الخليفة الثالث فقال :

لقد أوطأ بني أمية رقاب الناس ، وولاهم الولايات ، وأقطعهم القطائع وافتتحت أرمينية في زمانه فأخذ الخمس كله ووهبه لمروان .

وطلب منه عبد اللـه بن خالد بن أسيد خلة ، فأعطاه أربعمائة ألف درهم ، وافتتح خلافته بإرجاع الحكَم بن أبي العاص وبنيه وأسرته إلى المدينة بعد أن طردهم رسول اللـه (ص) منها ، ولم يقبل (رسول اللـه (ص)) بهم شفاعة أحد أبداً . كما رفض الشيخان أبو بكر وعمر إرجاعهم إليها وشفاعة المتشفعين بهم .

وقد أنكر المسلمون ذلك أشد الإنكار . ولكن عثمان لم يلبث أن ولاه صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم فوهبها له .

ثم إن رسول اللـه (ص) كان قد تصدق بموضع سوق في المدينة يُسمَّى (بهزون) على المسلمين فأقطعه ابن عفان إلى الحرث بن الحكَم شقيق مروان - كما يذكر ذلك ابن أبي الحديد - ويضيف :

أقطع مروان خدعاً وكانت لفاطمة الزهراء (ع) ، وحمي المراعي حول المدينة كلها ، منع عنها مواشي المسلمين ، وأباحها لمواشي بني أمية . وأعطى عبد اللـه بن أبي سرح - وهو أخوه من الرضاعة - جميع ما أفاء اللـه عليه من فتح أفريقيا .

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي الف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة ألف ، وكان قد زوجه ابنته أم أبان ، فجاءه زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى - فقال له : لتبكي أن وصلت رحمي ؟ فقال : لا ولكن أبكي لانني ظننت انك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت تنفقه في حياة رسول اللـه ، واللـه لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً عليه ، فقال له : أُلقِ المفاتيح يابن أرقم فإنا سنجد غيرك .

الثورة التي لم ترحم :

أنشبت بنو أميـــة ، أظفارها في السلطة ، وبدأت تنهب أموال المسلمين نهباً ، وتبني بها حزبها السياسي ، وقوتها العسكرية . ولأنها كانت ذات نفوذ سياسي قبل الإسلام ، ولها علاقات مع القوى السياسية والعسكرية في الجزيرة ، وتجارب سياسية ، ولأن سماحة الإسلام ، وضعف بعض القيادات هيأت لهم فرصة النمو في الظل ، فقد حافظوا على أفكارهم وتقاليدهم وعلاقاتهم ، بل وهيكلية قيادتهم طوال الفترة التي كانوا بعيدين فيها عن السلطة ظاهراً ، بالرغم من تداخلهم فيها ..

بل ، إن أبا سفيان ، وهو قائدهم في الجاهلية وموجههم في الإسلام ، يزور الخليفة الثالث ، فيجد عنده حاشيته من بني أمية ، فيسأل جليسه هل في الحضور غريب ؟. وكان قد كُفَّ بصرهُ آنئذٍ ، فلما أجابه بالنفي واطمأن أبدى ما يجول في خاطره فخاطب قومه : تلقَّفوها يا بني عبد الدار تلقف الصبيان للكرة . فَوَ الذي يحلف به أبو سفيان لا جنَّة ولا نار !. فقام إليه الإمام علي (ع) الذي كان حاضراً في طرف المجلس فنهره .. فقال أبو سفيان العتب ليس علي وإنما على الذي غرَّني وقال لا غريب بين الحضور .. فتصوَّر هذا العذر السخيف من ذلك الشيخ الذي ما دخل الإيمان إلى قلبه .

وعندما تصاعدت أمواج الثورة ضد تصرفات بني أمية ، في عهد الخليفة الثالث ، مرّ معاوية وكان يومذاك قائد قوات بني أمية واقعاً ، ووالي الشام - في الظاهر - ، مرّ بقوم من كبار المهاجرين ، فيهم علي (ع) وطلحة والزبير فقال :

إنكم تعلمون أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه ، حتى بعث اللـه نبيَّه فتفاضلوا بالسابقة والقدمة والجهاد . فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس لهم تبع . وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ، ورده اللـه إلى غيرهم . وإن اللـه على البدل لقادر ، وإني قد خلفت فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكاتفوه تكونوا أسعد منه بذلك . (٤٢)

وعرف الحاضرون مغزى كلامه ، فلقد هددهم بأنه وحزبه سوف ينقلبون على أصحاب النبي (ص) لولم ينتصروا لعثمان .. وهكذا يقول ابن أبي الحديد المعتزلي : من هذا اليوم أنشب معاوية أظفاره في الخلافة لأنه غلب على ظنه قتل عثمان ألا ترى إلى قوله : وإن طلبوا الدنيا بالتغالب سلبوا ذلك ورده إلى غيرهم وهو على البدل لقادر . وإنما يعني نفسه ولذا تربص بنصرة عثمان لما استنصره (٤٣) .

لقد أتم الحزب الأموي استعداده للإنقلاب على النظام الإسلامي ، وإقامة نظام جاهلي جديد ، يتخذ من الدين وسيلة جديدة للسيطرة .

وثار الناس من كل مكان ، ولا سيما من الكوفة والبصرة ، ومصر .. ومشى من كل منها ألف مسلح إلى المدينة في محاولة للضغط على الخليفة ، وكان هوى أهل الكوفة في الزبير ، بينما كان أهل البصرة يميلون إلى طلحة ، أما أهل مصر فكانوا شيعة الإمام (ع) .

ولم يكن الإمام (ع) راضياً لفعال الخليفة ، ولكنه حاول جهده تجنب الفتنة . وكم كان يسعى لإصلاح ما أفسده بنو أمية في الحكم ، إلاّ ان الخرق كان قد اتَّسع على راقعه .

ولعل الحديث التالي يكفينا شاهداً على موقف الإمام الإصلاحي ، وكيف كان يجابَهُ بضغوط بني أمية الغالبين على أمر الخليفة . ولعلهم كانوا ينتظرون أمراً آخر . أو كانت قيادتهم المتمثلة في معاوية تخطط فعلاً لقتل الخليفة عسى أن يتخذوه شعاراً لحركتهم نحو السلطة .

الحديث يقول :

إن الثوار كتبوا إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ، وأقسموا له باللـه أنهم لايرجعون عنه أبداً ، وغير تاركيه حتى يعطيهم ما يلزمهم من حق اللـه . وأحس عثمان أن القوم جادُّون في طلباتهم ، فأرسل إلى علي (ع) فلما جاءه قال له : يا أبا الحسن قد كان من الناس ما رأيت ، وكان مني ما قد علمت ، ولست آمَنَهُم على قتلي ، فارددهم عنّي ، فإن لهم واللـه أن أعفيهم من كل ما يكرهون ، وأن أعطيهم من نفسي ومن غيري ما يريدون وإن في ذلك سفك دمي .

فقال له أمير المؤمنين (ع) :

" إن الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك ، وإني لأرى القوم لا يرضون إلاّ بالرضا . وقد كنت أعطيتهم في المرة الأولى عهد اللـه أن ترجع عن جميع ما نقموا ،

فرددتُهم عنك ، ولم تفِ لهم بشيء من ذلك ، فلا تغرَّنني - هذه المرة - من شيء فإني معطيهم عليك الحق " .

قال : نعم ، فأعطهم واللـه الآن ، فواللـه لأَفِيَنَّ لهم بكل ما تريد .

فخرج علي إلى الناس ، وقال :

" أيها الناس ! إنكم إنما طلبتم الحق وقد أعطيتموه ، إن عثمان زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيــره ، وراجع عن كل ما تكرهون " .

فاقبلوا منه ، ووكدوا عليه .

فقال الناس : قد قبلنا ، فاستوثق لنا منه ، فإنا واللـه لانرضى بقول دون فعل .

فقال لهم : ذلك لكم .

وتمضي الرواية تحدثنا عن أن رسالة خرجت - بعد هذه المعاهدة - من بيت الخليفة الثالث إلى عُمَّاله وعليها خاتم الخليفة ، يدعوهم فيها إلى نصرته ، وقتل رؤساء المعارضين ، وأنه أخذ يتأهب للقتال ويعدّ جيشاً عظيماً من رقيق الخمس .. مما أثار شكوك المعارضين ، فعادوا إليه ، وطالبوه بعزل الولاة فوراً ، أو خلع نفسه فلم يفعل . ثم أنكر الرسالة وادَّعى أنها تزوير عليه .. ولعل أصابع بني أمية داخل البيت كانت قد زورت الرسالة وغيّمت سحب الشكوك ، ووقعت الفتنة (٤٤).

وهكذا جرت الرياح في اتجاه العنف ، وقتل عثمان ، وغلب الثوار على المدينة ، ولخص الإمام علي (ع) الواقعة بعدئذ في كلمتين ، حين قال عن مقتله :

" لو أمرت به لكنت قاتلاً ، أو نهيت عنه لكنت ناصراً " .

وأضاف : " وأنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الاثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع " (٤٥).

ولعل حكم اللـه الواقع في المستأثر أن يكبوَ به فرس السلطة ويقتل على فراشه ، وحكمه في الجازع أن يكون كمن يجتني الثمرة في غير أوانها فلا يهنأ بها . وهكذا استطاع الحزب الأموي أن يستفيد من مقتل الخليفة أكثر من الثوار . حتى تبرَّأ من مقتل الخليفة مَن كان مِن أشد المحرِّضين عليه ، فهذه أم المؤمنين عائشة كانت تهتف : اقتلوا نعثلاً فقد كفر . وهذا طلحة والزبير ، كانا يواصلان التحريض عليه ويجرِّدان الجيوش ضدَّه . وهذا عمرو بن العاص يؤلِّب عليه حتى الرعاة . ولكنهم جميعاً انحازوا إلى صف المطالبين بدمه .

ولو سمعوا نصيحة الإمام عليه السلام لكانت الخلافة تعود إلى مراسيها دون إراقة دماء ، وإثارة الفتن .

(١) نهج البلاغة - شرح د . صبحي الصالح : ص ٣١١ .

(٢) نهج البلاغة الخطبة (٥) .

(٣) موسوعة بحار الأنوار : ج ٢٨ ، ص ٢٠٧ .

(٤) موسوعة بحار الانوار : ج ٢٨ ، ص ١٩١ .

(٥) المصدر : ص ١٠٢ .

(٦) نهج البلاغة : ص ١٤٣ .

(٧) سيرة الأئمة الاثنى عشر : ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٨) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ١ ص ١٣١ : ومن كتاب معاوية المشهور إلى علي (ع) : وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلاً على حمار ويدك في يدي ابنَيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق ، فلم تدع أحداً من اهل بدر والسوابق إلاّ دعوتهم إلى نفسك ومشيت إليهم بأمرانك ، وأدليت إليهم بابنيك ، واستنصرتهم على صاحب رسول اللـه ، فلم يجيبك منهم إلاّ أربعة أو خمسة .

(٩) قال ابن الأثير في أسد الغابة : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي ، يكنى أبا سعيد ، كان من السابقين إلى الإسلام ثالثاً أو رابعاً بعثه رسول اللـه عاملاً على صدقات اليمن وقيل على صدقات مذحج وعلى صنعاء فتوفي النبيُّ (ص) وهو عليها ولم يزل خالد وأخَوَاه عمرو وأبان على أعمالهم التي استعملهم عليها رسول اللـه (ص) حتى توفي رسول اللـه فرجعوا عن أعمالهم فقال لهم أبو بكر : مالكم رجعتم ؟ ما أحد أحق بالعمل من عمال رسول اللـه . ارجعوا إلى أعمالكم . فقالوا : نحن بنو أبي أحيحة لانعمل لأحد بعد رسول اللـه أبداً . وكان خالد على اليمن ، وأبان على البحرين، وعمرو على تيماء ، وتأخر خالد وأخوه أبانُ عن بيعة أبي بكر فقال لبني هاشم : إنكم لطوال الشجر طيِّبوا الثمر ، ونحن لكم تبع ، فلما بايع بنو هاشم أبا بكر بايعه خالد وأبان وسيجيء تمام الكلام فيه.

(١٠) روى ابن أبي الحديد في شرح النهج : ج ٢ ص ١٧ عن أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري بإسناده عن المغيرة أن سلمان والزبير وبعض الأنصار كان هواهم

أن يبايعوا عليّاً بعد النبي فلما بويع أبو بكر قال سلمان للصحابة : أصبتم الخير ولكن أخطأتم المعدن قال : وفي رواية أخرى : أصبتم ذا السن منكم ولكنكم أخطأتم أهل بيت نبيكم . أما لو جعلتموها فيهم ما اختلف منكم اثنان ولأكلتموها رَغَداً .

قال ابن أبي الحديد : قلت هذا الخبر هو الذي رواه المتكلمون في باب الإمامة عن سلمان أنه قال : (كرديد ونكرديد) تفسره الشيعة فتقول : أراد اسلمتم ، ويفسره اصحابنا فيقولون معناه أخطأتم واصبتم .

وقال السيد المرتضى في الشافي : (٤٠١) : فإن قيل : المروي عن سلمان أنه قال : (كرديد ونكرديد) وليس بمقطوع به قلنا : إن كان خبر السقيفة وشرح ما جرى فيها من الأقوال مقطوعاً به ، فقول سلمان مقطوع به ، لأن كل من روى السقيفة رواه ، وليس هذا مما يختص الشيعة بنقله فيتهم فيه ..

وليس لهم أن يقولوا كيف خاطبهم بالفارسية وهم عرب ، وذاك أن سلمان وإن تكلم بالفارسية فقد فسره بقوله : أصبتم وأخطأتم : أصبتم سنّة الأولين وأخطأتم أهل بيت نبيكم إلى آخر ما سيجيء في آخر هذا الباب (تتميم) نقلاً عن تلخيص الشافي .

أقول : ولفظ سلمان على ما في أنساب الأشراف (٥٩١/١) العثمانية : (ص ١٧٢ و ١٧٩ و ١٨٧ و ٢٣٧) (كرداد ونا كرداد) ، فالظاهر من قوله : (كرداد ونا كرداد) أن صنيعهم هذا صنيع وليس بصنيع (قال في البرهان : كرداد - وزان بغداد بالفتح البناء والأساس وقال : كردار بكسر الأول القاعدة والسيرة : (آئين - روش) فنفي الفعل ثانياً بعد إثباته أولا يفيد أن ما صنعوه لم يكن على وفق الحق ومقتضاه حيث إن الناس وإن كان لابد لهم من أمير يطاوعون له ، يصدرون عن نهيه ويردون بأمره ، ولكن الذي يجب أن يُطاوَع ويُبايَع ليس هو أبو بكر الذي لايمكنه أن يتخطَّى خطى النبي (ص) ويحذو حذوه ، ولا له عصمة كعصمة النبي ، فلا يؤثر في أشعارهم وأبشارهم ولا ... وألف ولا .

وأما الاعتراف بأنه كيف خاطبهم بالفارسية أولاً ثم خاطبهم بالعربية - وقد أكثر في ذلك الجاحظ في العثمانية : (ص ١٨٦) فعندي أن ذلك معهود من طبيعة الإنسان إذا أن في نفسه نفثة لايمكنه أن يصدرها كما هي ، أخرجها مَهَمْهِماً كخواطر النفوس .

وإذا كان عارفاً بلسانين كسلمان الفارسي أصدر النفثة بلسان غير لسان المخاطبينَ ، ثم مضى في كلامه بلسانهم ، فروي تلك الكلمة من سمعها من سلمان وترجمها من كان يعرف اللغة الفارسية بعد ذلك .

(١١) وقد صدق التاريخ كلام أبي ذر هذا حيث أرتدت العرب بعدما سمعت من أن أصحاب النبي (ص) ابتزوا سلطانه من مقره ، فطمعوا أن يكون لهم في ذلك نصيب ، فطغوا على الخليفة أبي بكر واشتهر طغيانهم هذا بعنوان الردة ، نعم كانت الرِّدة ولكن على من ؟ على اللـه ورسوله ؟ أو على الخليفة من بعده ؟ سيجيء تمام الكلام في أبواب المطاعن عند خلاف بني تميم وقتل مالك بن نويرة إن شاء اللـه تعالى .

(١٢) البلاذري : (١ / ٣٨٠) وفي السير أن رسول اللـه بعث عمرو بن العاص أولاً ثم بعث أبا عبيدة مدداً له وفيهم أبو بكر وعمر فاجتمعوا تحت قيادة عمرو ، راجع سيرة ابن هشام : (ج ٢ ، ص ٦٣٢) ، أسد الغابة : (ج ٤ ، ص ١١٦) ترجمة عمرو بن العاص منتخب كنز العمال : (ج ٤ ص ١٧٨) ، تاريخ الطبري : (ج ٣ ص ٣٢) ، ولعمروا بن العاص ترجمة اضافية من شتى نواحي البحث تراها في كتاب الغدير : (ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٧٦) .

(١٣) بريدة بن الحصيب الأسلمي ابو ساسان أو أبو عبد اللـه كان ذا بيت كبير في قومه مر به رسول اللـه مهاجراً فأسلم هو ومن معه وكانوا ثمانين بيتاً فصلوا خلف رسول اللـه (ص) العشاء الآخرة ثم قدم عليه (ص) بعد غزوة أحد وشهد معه المشاهد كلها وولاه رسول اللـه صدقات قومه . روي أنه لما سمع بموت النبي (ص) وكان في قبيلته ، أخذ رايته فنصبها على باب بيت أمير المؤمنين فقال له عمر : الناس اتفقوا على بيعة أبي بكر ، مالك تخالفهم ؟ فقال : لا أبايع غير صاحب هذا البيت .

وأما حديث التسليم على علي بامرة المؤمنين فقد أخرجه العلاّمة المرعشي (قدس سره) في ذيل الإحقاق عن معاجم كثيرة من كتب أهل السنّة راجع : (ج ٤ ، ص ٢٧٥) وما بعده .

وأما حديث خلافه فقد روى علم الهدى في الشافي (٣٩٨) عن الثقفي بإسناده عن سفيان بن فروة عن أبيه قال : جاء بريدة حتى ركز رايته في وسط أسلم ثم قال : لا أبايع حتى يبايع علي بن أبي طالب . فقال علي : يا بريدة ادخل فيما دخل فيه الناس ، فإن اجتماعهم احبُّ إليَّ من اختلافهم اليوم . وبإسناده عن موسى بن عبد اللـه بن الحسن قال : أبت أسلم أن تبايع ، فقالوا : ما كنا نبايع حتى يبايع بريدة لقول النبي (ص) لبريدة (علي وليكم من بعدي) قال : فقال علي : إن هؤلاء خيروني أن

يظلموني حقي وأبايعهم ، وارتد الناس حتى بلغت الردة أحداً فاخترت أن أظلم حقي وان فعلوا ما فعلوا .

اقول : وحديث بريدة (يا بريدة لاتبغض عليّاً (لا تقع في علي) إن عليّاً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي) من المتواترات وقد أخرجه أصحاب الصحاح . راجع مسند الإمام ابن حنبل : (ج ٥ ، ص ٣٥٦) ، خصائص النسائي : (٣٣) شرح النهج الحديدي : (ج ٢ ، ص ٤٣٠) مجمع الزوائد : (ج ٩ ، ص ١٢٧) وهكذا حديث عمـران بن الحصين ويقال إنه أخا بريدة لأمه أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده : (١١١) تحت الرقم (٨٢٩) ، الترمذي في صحيحه : (ج ٥ ، ص ٢٩٦) ، تحت الرقم (٣٧٩٦) و (٣٨٠٩) وأخرجه عنه في مشكاة المصابيح (٥٦٤) جامع الأصول (٩ / ٤٧٠) ، ورواه النسائي في الخصائص : (٣٣ و ٢٦) مستدرك الصحيحين : (ج ٣ ، ص ١١٠) ، إلى غير ذلك من المعاجم الحديثية راجع بسط ذلك في ذيل الإحقاق : (ج ٥ ، ص ٢٧٤ - ٣١٧) .

(١٤) حديث سد الأبواب إلا باب علي (ع) قد مر في (ج ٣٩ ، ص ١٩ - ٣٤) من بحار الأنوار تاريخ مولانا أمير المؤمنين (ع) وأخرج المؤلف العلامة المجلسي من روايات الفريقين في ذلك ما فيه غناء وكفاية، وإن شئت راجع ذيل الإحقاق : (ج ٥ ، ص ٥٤٠ - ٥٨٦) فقد أخرجه عن الترمذي : (ج ١٣ ، ص ١٧٣) ط الصاوي بمصر ، وهو في ط الإعتماد : (ج ٥ ، ص ٣٠٥) تحت الرقم (٣٨١٥) ، وعن النسائي في الخصائص (١٣ و ١٤) والحافظ أبي نعيم في الحلية (٤ / ١٥٣) ، ابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية (٧ / ٣٣٨) ، ابن حنبل في مسنده : (ج ٤ ، ص ٣٦٩) ، الحاكم في مستدركه (١٢٥/٣) وللعلامة الأميني قدس سره في كتابه التدبر بحث ضاف ونظرة ثاقبة في حديث سد الأبواب من شاءها فليراجع : (ج ٣ ، ص ٢٠٢) وما بعده .

ومما يناسب ذكره هنا أن الترمذي : (ج ٥ ، ص ٢٧٨) روى بإسناده عن عروة عن عائشة (ان النبي (ص) أمر بسد الأبواب إلاّ باب أبي بكر) ولفظ البخاري (٥/٥) (لايبقين في المسجدباب إلاّ سد ، إلاباب أبي بكر) ولم يتفطنوا أن النبي لم يأمر بسد الأبواب إلاّ بابه للخلة ولا للقرابة ، وإنما أمر بسد الأبواب لحكم شرعي اقتضى ذلك ، وهو أنه لايحل لأحد أن يستطرق جنباً مسجد الرسول (ص) إلاّ من كان طاهراً طيباً بنص آية التطهير ، ولذلك قال (ص) : (يا علي لايحل لأحد أن يجنب في هذا

المسجد غيري وغيرك) رواه الترمذي في (ج ٥ ، ص ٣٠٣) تحت الرقم (٣٨١١) البيهقي في سننه (٧ / ٦٥) ، الخطيب التبريزي في مشكاة المصابي (٥٦٤) ، العسقلاني في تهذيبه (٩ / ٣٨٧) إلى غير ذلك مما تجده في ذيل الاحقاق .

وأما حديث (أنا مدينة العلم وعلي بابها) فقد مضى البحث عنه في (ج ٤٠ ص ٢٠٠ - ٢٠٧) من تاريخ أمير المؤمنين (ع) وإن شئت راجع ذيل الإحقاق (ج ٥ ، ص ٤٦٩ - ٥١٥) أخرج الحديث بألفاظه عن معاجم كثيرة منها المستدرك (٣ / ١٢٦ و ١٢٧) تاريخ بغداد (٢ / ٣٧٧) أنساب السمعاني (١١٨٢) تاريخ الخلفاء : (٦٦) .

(١٥) استعرض أبو الفداء في كتابه المختصر في إخبار البشر حديث السقيفة قائلا : بادروا سقيفة بني ساعدة فبايع عمر أبا بكر وانثال الناس يبايعونه خلا جماعة من بني هاشم والزبير وعتبة بن أبي لهب وخالد بن سعيد بن العاص والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبي ذر وعمار بن ياسر ووراء بن عازب ، وأبي بن كعب ، وأبي سفيان من بني أمية ومالوا مع علي رضي اللـه عنهم .

وقال اليعقوبي في تاريخه (٢ / ١١٤) أنه تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ومالوا مع علي .. ثم ذكر هؤلاء الجماعة المفكرين لبيعته .

(١٦) روي حديث إقالته هذا في الصواعق المحرقة : (٣٠) ولفظه (اقيلوني أقيلوني لست بخيركم) الإمامة والسياسة (٢٠) ولفظة بعد ما قالت السيدة فاطمة (ع) في محاجةٍ لها معه : (واللـه لأدعون اللـه عليك في كل صلاة أُصلِّيها) (فخرج أبو بكر باكياً فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته مسروراً بأهله وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم أقيلوني من بيعتي) .

ورواه في مجمع الزوائد : (ج ٥ ص ١٨٣) نقلاً عن الطبراني في الأوسط ولفظه (قام أبو بكر الصديق من الغد حين بويع فخطب الناس فقال : أيها الناس إني قد أقلتكم رأيي ، إني لست بخيركم فبايعوا خيركم) ونقله في شرح النهج : (ج ١ ، ص ٥٦) وقال : اختلف الرواة في هذه .

(١٧) ننقل النص والتعليقات من نهج البلاغة تحقيق د . صبحي صالح .

(١٨) تقمصها : لبسها كالقميص .

(١٩) سدل الثوب : أرخاه .

(٢٠) الجذاء بالجيم والذال المعجمة : المقطوعة .

(٢١) الطخية : الظلمة .

(٢٢) الشجا : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٢٣) التراث : الميراث .

(٢٤) الكور : الرحل أو هو مع أداته .

(٢٥) تشطَّرا ضرعيها : اقتسماها ، فأخذ كل منها شطراً : والضرع : ثدي الناقة .

(٢٦) كلمها : جرحها : كأنه يقول : خشونتها تجرح جرحاً غليظاً .

(٢٧) العثار : السقوط والكبوة .

(٢٨) الصعبة : من الإبل : ما ليست بذلول .

(٢٩) اشنق البعيروشنقه : كفه بزمام حتى ألصق ذخراه (العظم الناتئ خلف الأذن) بقادمة الرحل .

(٣٠) خرم : قطع .

(٣١) أسلس : أرخى .

(٣٢) تقحم : رمى نفسه في القحمة أي الهلكة .

(٣٣) مني الناس : ابتلوا .

(٣٤) خبط : سير على غير هدى .

(٣٥) الشماس : بالكسر - إباء ظهر الفرس عن الركوب .

(٣٦) الاعتراض : السير على غير خط مستقيم ، كأنه يسير عرضاً في حال سيره طولاً.

(٣٧) النظائر : جمع نظير أي المشابه بعضهم بعضاً دونه .

(٣٨) أسف الطائر دنا من الأرض .

(٣٩) راجع : سيرة الأئمة الاثنى عشر (ج١ / ص ٣٩٤) .

(٤٠) المصدر : ص (٣٩٧) .

(٤١) المصدر : (ص ٣٨٠) .

(٤٢) في رحاب أئمة أهل البيت : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤٣) المصدر : ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤٤) سيرة الأئمة الاثنى عشر : ج ١ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٥ نقلاً عن الطبري : ص (١١٢) المجلد الخامس .

(٤٥) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ٣٤٨) . ويقول ابن ابي الحديد في شرح النهج ج١ / ص ٢٣١ : " سئل ابو سعيد الخدري : هل شهد مقتل عثمان احد من الصحابة ؟ قال نعم : شهده ثمانماية " .

فهرس الكتاب

الفصل الرابع: عهد امامته عليه السلام

هكذا سعت الخلافة نحو الإمام (ع) :

وحملت أمواج الإضطراب سفينة الأمة بعيداً عن شواطئ الأمان ، واجتمع المهاجرون والأنصار وفيهم طلحة والزبير ، وأجمعوا على بيعة الإمام (ع) فجاؤوا إليه مسرعين وقالوا : لابد للناس من إمام .

قال : لا حاجة لي في أمركم ، فَمَنِ اخترتم رضيت به .

قالوا : ما نختار غيرك ؛ وأضافوا : إنا لا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك .

قال : لاتفعلوا ، فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً .

فقالوا : لا واللـه ، ما نحن بفاعلين حتى نبايعك .

قال : ففي المسجد ، فإن بيعتي لاتكون خفيّةً ولا تكون إلاّ عن رضا المسلمين .

فخشي الناس عليّاً ، فقالوا نبايعك ، فقد ترى ما نزل بالإسلام .

فقال : " دعوني والتمسوا غيري ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان . لاتقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول " .

فقالوا ننشدك اللـه ، ألاَ ترى ما نحن فيه ؟ ألاَ ترى الإسلام ؟ ألاَ ترى الفتنة ؟

فقال : " قد أجبتكم وإني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم " (١).

أجل ، إن الإمام (ع) يرفض الخلافة لأن أمواج الفتنة قد بلغت أعلى مد ، ويود لو يكون وزيراً يساهم من موقع حُرٍّ في إخماد نيران الفتنة ، ولكن لا أحد رشح نفسه للخلافة ، ولا أحد كان يقبل بغير الإمام (ع) .

والإمام يرفض بيعة أهل الحل والعقد من دون رضا الناس ، ويرى ذلك حق عامة الناس ، فيجعلها في المسجد على الملأ العام .

ويشترط عليهم بأن يقودهم على علمه ، لا بجهلهم ، ووفق سنّة الرسول ، لا مصالح أصحابه وضغوط القوى السياسية .

واستقبل الإمام عهده ، بالثورة ضد الوضع الفاسد ، وقد عقد عزمات قلبه جميعاً على مواجهة كل تلك العقبات التي خضع لها أو توقف عندها من كان قبله ، وأعظمها القوة السياسية المتنامية عند بني أميـــة ،

ومن تحالف معهم من بقايا العهد الجاهلي .

والواقع أن تصفية هذه القوة ، كانت من أعظم المهام الرسالية التي بدأها الرسول ، وتابع أصحابه من بعده نهجه بفتور ، حتى إذا جاء الإمام (ع) وكانت الظروف مؤاتية ، نهض بها بعزم راسخ .

أو ليسوا هم الشجرة الملعونة في القرآن ، أوليس الرسول (ص) قد حذَّر منهم ، وقال : " إذا رأيتم معاوية هذا على منبري فاقتلوه ، ولن تفعلوا " .

إنهم كانوا أكبر قوة سياسية في الجزيرة ، وكان الرسول قد احتواهم ، لعلهم يؤوبون إلى رشدهم ، ويكيِّفون أنفسهم مع الواقع الجديد ، أو تقوى شوكة الإسلام فتقضي عليهم في الوقت المناسب . وها قد حان ذلك الوقت ، فإنهم ليس فقط لم يذوِّبوا أنفسهم في بوتقة المجتمع الإسلامي . بل ما فتئوا يدبِّرون المؤامرات ضد القوى الرسالية ، ويتحيَّنون الفرص للانقضاض على السلطة .

ومن هنا نجد الإمام عليَّاً (ع) يبدأ عهده بالهجوم على بني أمية وامتيازاتهم التي ابتزُّوها من الخليفة السابق .

يروي ابن أبي الحديد : عن ابن عباس أن عليّاً خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة فقال :

" إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال اللـه فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفُرِّق في البلدان لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور أضيق " (٢).

وعزل الإمام عمال الخليفة السابق وهم حكام الولايات الإسلامية ، وأصرَّ على عزل معاوية ، قائد الحزب الأموي السياسي والعسكري ، والذي كان يرضى من الإمام إبقاءه على الشام كما فعل السابقون ، لعله يجد فرصة أخرى لتحقيق هدف حزبه في السلطة .

لقد كانت تلك أعظم مسؤوليات الإمام (ع) إذ عهد إليه رسول اللـه (ص) تكميل ما بدأه من تصفية القوى الجاهلية وبقاياها ، وقال له مرة :

" تقاتلهم على تأويله ، كما قاتلناهم على تنزيله " .

وإن أهل البصائر من أصحاب رسول اللـه (ص) واعون تماماً لهذه الرسالة الإلـهية التي يجب عليهم تنفيذها ، وإن الإمام إنما قبل بالإمارة لتحقيق هذا الهدف . وبذل قصارى جهده لتحقيق واحد من هدفين متدرجين :

١- فإما سحق بقايا النظام الجاهلي وإقامة نظام العدل الإسلامي .

٢- وإما تعرية هذه القوة الجاهلية وفضحها وإيجاد حركة رسالية تهدف إلى القضاء عليها وتمنعها من تحقيق كل أهدافها .

ولأن الظروف لم تسمح لتحقيق الهدف الأول ، فلقد حقق الهدف الثاني ، وأنشأ في الأمة طليعة رسالية ناضلت ضد بني أمية حتى تمت تصفيتهم كاملاً دون أن يحققوا هدفهم الرئيسي ، وهو إعادة الناس إلى الجاهلية . والقصة التالية تكشف جانبا من أهداف معاوية .

كان معاوية - بعد أن تم له الأمر ظاهرا - يستمع إلى الأذان ، وإلى جانبه بعض خواصه ، وإذا به يتميز من الغيظ عندما يسمع المنادي يهتف " أشهد أن محمداً رسول اللـه " فيسأله صاحبه عن ذلك فيقول :

إن أخا تيم حكم وذهب ، فقال الناس رحم اللـه أبا بكر .

وكذلك أخو عدي ، لم يزد الناس بعد حكمه أن قالوا : رحم اللـه عمر .

ولكن هذا ابن أبي كبشة (أي رسول (ص) لم يَرْضَ حتى قُرن اسمه باسم اللـه ، لا واللـه إلاّ دفناً دفنـاً .

أمّا يزيد ابنه الماجن فقد أنشد قائلاً :

لعـبت هـــاشـم بـالـملـك * فلا خبـرٌ جاء ولا وحـيٌ نزل

من هنا وضع أمير المؤمنين (ع) استراتيجيته على أساس محاربة الباطل وتصفية الحزب الأموي مهما كلفه الأمر .

الإمام (ع) يجاهد أعداء الدين :

وكأية ثورة أصيلة ؛ واجهت ثورةُ أنصار الحق ، ثلاثة محاور معادية :

١- بقايا العهد البائد .

٢- الإنتهازيين .

٣- المتطرفين .

أمّا الإنتهازيون فهم الذين يسايرون الثورة أيام تصاعد مدها يبغون ركوبها لتحقيق مطامعهم السياسية باسم المساهمة فيها . فإذا رأوا قيادة الثورة واعية ، قلبوا ظهر المجنّ وحاربوها وهم عادة ما ينهزمون أمامها . إن قوة هذا الفريق كامنة في مكرهم وتلوُّنهم ، فإذا افتضحوا فشلوا وانهزموا .

وكان طلحة والزبير وأقرانهما من هذا الفريق حيث عارضوا الخليفة الثالث ، وكانوا يمنّون أنفسهم بالسلطة أو بنصيب منها على الأقل . فلما رأوا ميل الناس إلى أمير المؤمنين ، انحنوا للعاصفة مؤقتاً ، وبايعوه ، بل كانوا أول من بادر إلى بيعته طمعاً في تقاسم السلطة معه . ولكنهم وجدوا الإمام لايطلب الحق بالجور ، ولم يحقق طلب طلحة والزبير بإمارة الكوفة والبصرة ، وكان لهما فيهما شيعة وهواة ، فتمردوا عليه ونكثوا بيعته ، وطالبوه بدم من قتلوهم ، وأدَّعوا بأنهم أولياء الخليفة الثالث ، وتحملوا وزراً عظيماً ، لأنهم بادروا إلى إشعال نار الفتنة بين المسلمين ، وكانت الحرب التي أعلنوها أول حرب دامية بين المسلمين .

حرب الجمل :

كان أبو بردة عوف الأزدي ممن تخلف عن نصرة الإمام في الكوفة ، فلما عاد الإمام فاتحاً من البصرة ، عاتب المتخلّفين ، وقال :

" ألاَ إنه قد قعد عن نصرتي منكم رجال ، فأنا علَيهم عاتبٌ زارٍ ، فاهجروهم وأسمعوهم ما يكرهون حتى يعتبوا ، لِيُعرفَ حزبُ اللـه عند الفرقة " .

فقام إليه أبو بردة ، وقال : يا أمير المؤمنين أرأيت القتلى حول عائشة والزبير وطلحة بِمَا قُتلوا ؟

قال (ع) : قَتلوا شيعتي وعمالي وقَتلوا أخا ربيعة العبدي رحمة اللـه عليه في عصابة من المسلمين ، قالوا : لا ننكث كما نكثتم ، ولا نغرر كما غررتم ، فوثبوا عليهم فقتلوهم ، فسألتهم أن يدفعوا إليَّ قتلة إخواني أقتلهم بهم ، ثم كتاب اللـه حكم بيني وبينهم ، فَأَبوا عَليَّ ذلك وقاتلوني ، وفي أعناقهم بيعتي ودماء قريب من ألف رجل من شيعتي فقتلتهم بهم .

ثم خاطبه قائلاً : أفي شك أنت من ذلك ؟

قال : " قد كنت في شك ، فأما الآن فقد عرفت واستبان لي خطأ القوم ، وإنك أنت المهديّ المهدي المصيب "(٣) . هكذا اختصر الإمام جرائم الناكثين .

ومرة أخرى حينما تواجه الفريقان بالبصرة ، دعا الإمام طلحة والزبير وحاججهما فقال :

" لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما أعددتما عند اللـه عذراً فاتَّقيا اللـه سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . ألم أكن أخاكم في دينكما ، تحرمان دمي وأحرم دماءكما ؟ فهل من حدث ما أحل لكما دمي " .

قال طلحة : أَلَّبت الناس على عثمان .

فقال علي : " يومئذ يوفيهم اللـه دينهم الحق ويعلمون أن اللـه هو الحق المبين . يا طلحة تطلب بدم عثمان ؟ فلعن اللـه قتلة عثمان ، يا طلحة جئت بعرس رسول اللـه (ص) تقاتل بها ، وخبَّأت عرسك ، أما بايعتني ؟ " (٤).

ثم ذكَّر الإمام (ع) الزبير ببعض المواقف مع رسول اللـه (ص) ، فاعتزل المعركة ، ولما اعتزل الزبير الحرب وتوجه تلقاء المدينة ، تبعه ابن جرموز فغدر به ، وعاد بسيفه ولامة حربه إلى الإمام (ع) فأخذ الإمام يقلِّب السيف ويقول :

" سيف طالما كشف به الكرب عن وجه رسول اللـه (ص) " ! .

فقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المؤمنين ، فقال : إني سمعت رسول اللـه (ص) يقول : " بشر قاتل ابن صفيه (الزبير) بالنار " ! .

ثم خرج ابن جرموز على عليٍّ مع أهل النهروان فقتله معهم فيمن قتل (٥).

ومن خلال أسطر التاريخ نكتشف أن الزبير وطلحة وعائشة كانوا جميعاً ، مترددين في مسيرهم ، وكم قرر الواحد منهم العودة . إلاّ أن هناك يداً خفية كانت تثبط عزمهم وتعيدهم إلى قلب الفتنة من جديد .

فهذا طلحة يأتي إلى البصرة فيخطب الناس ، ويدعوهم إلى خلع الإمام (ع) فيقولون له : يأ ابا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ، فسكت ولا يجد جواباً ، ويقدم الزبير للخطاب .

وهذه عائشة تمر في مسيرها إلى البصرة بماء يسمَّى (الحوأب) فتنبح بها كلابه . قالت : أي ماء هذا ؟ قيل هذا ماء حوأب . فإذا بها تصرخ بأعلى صوتها ثم تضرب عضد بعيرها فتنيخه ثم تقول :

أنا واللـه صاحبة كلاب الحوأب طروقاً رُدُّوني ، رُدُّوني ، رُدُّوني ..

هكذا ظلت هنالك ومعها قومها يوماً وليلة ، فخدعها عبد اللـه بن الزبير ، وجاؤوا لـها بأربعين رجلاً وقيل بخمسين من الأعراب رشَوهم فشهدوا أن هذا ليس بماء الحوأب [(٦)].

ويظهر عبد اللـه بن الزبير ، في الصورة مرة أخرى حينما أراد والده الاعتزال ، فأنحاه ، وغرَّر به .. مثله مثل محمد بن طلحة .

كماأن مروان بن الحكم ، يظهر في الصورة في بعض الأحيان وهو يحرض على الإستمرار في القتال ..

هكذا نكتشف الأصابع التي كانت وراء الشخصيات الظاهرة في حرب الجمل ، وهم تحالف بني أمية مع بعض الطامعين في السلطة ، من غيرهم ، تستَّروا بهم ، وقالوا لأنفسهم : لو ظفروا كان لنا معهم مثلما كان أيام الخليفة الثالث . أما إذا فشلوا ، فقد ضربنا عصفورين بحجر واحد : فمن جهة تخلصنا من المهاجرين والأنصار الطامعين في الخلافة ، حيث يصفي بعضهم بعضاً . ومن جهة ثانية سقطت هيبتهم بين المسلمين وظهروا في أعين الناس بمظهر الباحث عن مصالح شخصية .

وهكذا نستطيع أن نفسر وقوف الحزب الأموي إلى جانب طلحة والزبير وعائشة وهم من أشد المحرضين ضد عثمان ، وضد استئثار بني أمية بالسلطة والثروة في عهده . وكان الناس يتساءلون أنهم يريدون البصرة يطالبون أهلها بدم عثمان وقاتِلوا عثمان معهم . فقد روى الطبري بسنده عن المغيرة بن الأخنس قال : لقي سعيد بن العاص ، مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق فقال : أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ؟ (قال ابن الأثير يعني عائشة وطلحة والزبير) . أُقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لا تقتلوا أنفسكم . قالوا : بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً [(٧)].

ولعلهم أشاروا في نهاية حديثهم إلى أن هدفهم ضرب الناس ببعضهم للتخلص منهم جميعاً ، وهذا يفسر أيضاً ما ذكره ابن الأثير من أن مروان بن الحكم هو الذي رمى سهماً نحو طلحة فأصابه في رجله وقتله[(٨)]. لقد أبلغ أمير المؤمنين (ع) حينما بيَّن في أكثر من خطاب طبيعة هذه الحرب وأن وراءها قريش التي حاربها لأجل الرسالة وهم كافرون ، ويحاربها اليوم لذات الهدف ، وهم مفتونون .

يقول الشيخ المفيد : لما نزل أمير المؤمنين (ع) الربذة لقي بها آخر الحاج فاجتمعوا إليه ليسمعوا من كلامه - وهو في خبائه - قال ابن عباس فأتيته فوجدته يخصف نعلاً ، فقلت له : نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تَصلح . فلم يكلمني حتى فرغ

من نعله ، ثم ضمها إلى صاحبها وقال لي : قوِّمها . فقلت : ليس لهما قيمة ، قال : على ذاك ، قلت : كسر درهم قال :

" واللـه لَهُمَا أحَبُّ إلَيَّ من أمركم هذا ، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً " .

قلت إن الحاجَّ قد اجتمعوا ليسمعوا من كلامك ، فتأذن لي أن أتكلم ، فإن كان حسناً كان منك ، وإن كان غير ذلك كان مني ؟ قال : لا ، أنا أتكلم . ثم وضع يده على صدري ، وكان شثن الكفين فآلمني ثم قام ، فأخذت بثوبه ، وقلت نشدتك اللـه والرحم (وكأنه خاف أن يتكلم بما ينفرِّ الحاجّ) قال : لا تنشدني ، ثم خرج ، فاجتمعوا عليه ، فحمد اللـه وأثنى عليه ثم قال :

" أما بعد فإن اللـه بعث محمداً وليس في العرب أحد يقرأ كتاباً ولا يدَّعي نُبَّوة ، فساق حتى بوأهم محلتهم ، وبلغهم الناس الى منجاتهم . أما واللـه ما زلت في ساقتها . ما غيّرت ولا بدّلت ولا خُنت حتى قولت بحذافيرها ، مالي ولقريش ؟. أما واللـه لقد قاتلتهم كافرين ، ولأُقاتلنهم مفتونين ، وإن مسيري هذا عن عهدٍ إليّ فيه . واللـه لأبقرن بالباطل حتى يخرج الحق من خاصرته . ما تنقم منّا قريش إلاّ أن اللـه اختارنا عليهم ، فأدخلناهم في حَيْزِنا " .

وأنشد :

أَدَمْتَ ـ لَعمري ـ شُربك المحضَ خالصاً * وأكـلـك بالزُّبـد المقـشـرة البُــــحُـرَا

ونحـن وهبناك العلاء ولـم تكـن عـليّـاً * وحُطـــنــا دونـك الْجـرد والسُّمـرا (٩)

وهكذا نجد قريشاً ـ التي لاتزال أحلام السلطة على العرب تراودها ـ تتظاهر بالدين ، وتقود حرباً ضده وقد استعادت قواها المنهارة ، مستغلة ضعف الخليفة الثالث ، وغررت ببعض أصحاب الرسالة ، وطمعتها في الخلافة وذلك لعدم وضوح الرؤية عندهم . فهذا طلحة الذي كان يطمع في الخلافة بعد الخليفة الثاني فيؤلب أهل البصرة ضد الخليفة الثالث ، ويحرضهم على قتله ، يأتي بنفسه إلى البصرة وينادي مناديه : من كان فيهم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجيء بهم فقتلوا ولم ينج منهم إلاّ قليل (١٠) بالأمس كان يقودهم ، واليوم ينقلب عليهم ويقتلهم . أوليس هذا غريباً ؟ بَلَى ، ولكن طلحة كان بالأمس قائداً ، وأصبح اليوم رقماً في حسابات بني أمية ، وأضحى يصفِّي حزبه بنفسه . ولم يكن يشك أمير المؤمنين في وجوب قتالهم لأنه كان يعرف طبيعتهم وأهدافهم الخبيثة ولأن رسول اللـه (ص) كان قد أخبره بمسيره إليهم ، وأنه سوف يقتل الناكثين .. نعم ، إنه لاقى صعوبة حقيقية في توعية الناس ،

ولولا أهل البصائر من المهاجرين والأنصار الذين نهضوا معه ضد الفئة الناكثة ، وآزروه ونصروه بذات القوة التي آزروا بها رسول اللـه (ص) لكانت قريش بمكائدها وقوتها وعصبياتها تشكِّل خطراً حقيقياً ضد بقاء الإسلام .

ولقد استنهض الإمام (ع) جيش الكوفة الذين فتحوا بلاد فارس ، ثم استقروا هناك يحمون ثغور الإسلام ويبعثون بالسرايا لفتح المزيد من البلاد ، وإنما اختارهم لعلمه بوجود أهل البصائر من أصحاب النبي (ص) والفقهاء والقرّاء بينهم . ولقد قال لهم حين التقى بهم في منطقة ذي قار : " يا أهل الكوفة ، إنكم من أكرم المسلمين وأقصدهم تقويماً ، وأعدلهم سنّة وأفضلهم سهماً في الإسلام ، وأجودهم في العرب مركباً ونصاباً ، أنتم أشد العرب وُدّاً للنبي (ص) وأهل بيته ، وإنما جئتكم ثقة ـ بعد اللـه ـ بكم للذي بذلتم من أنفسكم عند نقض طلحة والزبير ، وخلعهما طاعتي وإقبالهما بعائشة للفتنة " (١١).

ولقد استمرت عرب الكوفة ، في ولائها لآل البيت ومحاربتها للخط الأموي حتى أزال اللـه دولة بني أمية في عهد العباسيين .

وحينما عَبَّأ الإمام (ع) جيشه ، سار بهم إلى البصرة حتى وردها ، وألقى خطاباً هامّاً بيَّن فيه مشروعية قتاله للناكثين ، كما أوضح استراتيجية حربه هذه ، فقال فيما قال :

" عباد اللـه ! . انهدوا إلى هؤلاء القوم ، منشرحةً صدوركم بقتالهم ، فإنهم نكثوا بيعتي ، وأخرجوا " ابن حنيف " عاملي ، بعد الضـــرب المبرِّح والعقوبة الشديدة ، وقتلوا السبابجة ، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي ، وقتلوا رجالاً صالحين ، ثم تتبَّعوا منهم من يحبني يأخذونهم في كل حائط ، وتحت كل رابية ، ثم يأتون بهم يضربون رقابهم صبراً . مالهم ، قاتلهم اللـه أنَّى يؤفكون !. انهدوا إليهم وكونوا أشداء عليهم وألْقَوهم صابرين محتسبين ، تعلمون أنكم منازلوهم ومقاتلوهم وقد وطنتم أنفسكم على الطعن والضرب ومبارزة الأقران .

وأيُّ امرئ منكم أحسَّ من نفسه رباطة جأش عند اللقاء ، ورأى من إخوانه فشلاً ، فليذبَّ عن أخيه الذي فضل عليه ، كما يذب عن نفسه ، فلو شاء اللـه لجعله مثله " (١٢).

وكان الإمام (ع) يرفض معاملة الناكثين كما لو كانوا كفاراً ، بل منع أصحابه من المبادرة بالقتال ، ولم يأذن لهم به إلاّ بعد أن رمى اصحاب الجمل عسكره بالنبل رمياً

شديداً متتابعاً ، فضج إليــه أصحابه وقالوا : عقرتنا سهامهم يا أمير المؤمنين ، فلم يأذن لهم حتى بعث إلى عسكر البصرة رجلاً يحمل مصحفاً ويدعوهم إلى التحاكم إليه فقتلوه فأصدر أمره بقتالهم .

وظل القتال ثلاثة أيام وأبدى أصحاب النبي (ص) من المهاجرين والأنصار البطولات التي اشتهروا بها أيام رسول اللــه (ص) ، وقد اجتمعوا في كتيبة واحدة سميت بالكتيبة الخضراء ، يقودهم سيدهم وأميرهم الإمام علي (ع) وقد هجمت في اليوم الأخير على الجمل الذي كان يعتبر راية الناكثين ، فعقروه . فلما سقط انهزم جميعهم ، وانتهت المعركة بانتصار الإمام (ع) الذي نادى مناديه : ألاَّ تتبعوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تدخلوا الدور ، ولا ترزأوا سلاحاً ولا ثياباً ولا متاعاً . ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن .

ثم مشى الإمام (ع) إلى عائشة وهي الباقية من قيادات المعارضة فاستقبلته صفية بنت الحارث وقد ثكلت بابنها فقالت له :

يا علي !. يا قاتل الأحبة ، يا مفرق الجمع ، أيتم اللــه منك بنيك كما أيتمت ولد عبد اللــه منه . فمشى عنها ولم يرد عليها . ثم دخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها ، فأخذت تعتذر إليه وتقول : إني لم افعل . فلما خرج الإمام أعادت صفية قولها المنكر للإمام فكفَّ عنها ولكنه قال : وهو يشير إلى بعض غرف الدار : أَما لَهممتُ أن أفتح هذا الباب وأقتل مَن فيه . ثم هذا فأقتل مَن فيه ، ثم هذا فأقتل من فيه . وكان أناس من مجرمي الحرب قد لجأوا إلى عائشة ، منهم مروان بن الحكم وعبد اللــه بن الزبير ، فتغافل الإمام (ع) عنهم . فقال رجل من الأزد وهو يشير إلى صفية ، واللــه لاتغلبنا هذه المرأة فغضب الإمام ، وقال :

" صه ، لا تهتكنّ ستراً ، ولا تدخلنّ داراً ، ولا تهيجنّ امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسفهن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن ، وإنهن لَمُشركات " (١٣).

وهكذا أدب الإمام أصحابه كيف يتعاملون مع أعدائهم بالرفق ، بالرغم من أن أنهراً من الدم قد جرت بينهم . ثم مضى الإمام إلى بيت المال وقسم ما فيه على الجند بالسوية ، فأعطى كل واحد خمسمائة ، وأخذ ايضاً خمسمائة ، وجهَّز عائشة بما تحتاج من مركب وزاد ، وأرسلها إلى المدينة واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وأرسل معها أخاها محمداً ، وكان من أقرب أصحاب الإمام إليه .

واستخلف على البصرة ابن عباس وكتب إليه عهداً قال فيه .. فارغب راغبهم بالعدل عليه والانصاف له والاحسان إليه ، وحل عقدة الخوف عن قلوبهم .

وكتب إلى أمراء الجيش وهو يحدد معالم حكمه :

" لكم عندي ألاَّ أحتجز دونكم سرّاً إلاّ في حرب ، ولا أطوي عنكم أمراً إلاّ في حكم ، ولا أؤخر حقّاً لكم عن محله ، ولا أرزأكم شيئاً وإن تكونوا عندي في الحق سواء " .

وعاد أدراجه إلى الكوفة ورايات النصر ترفرف عليه ، وأبى أن يدخل قصر الإمارة بل اختار بيت جعدة بـن

أبي هبيرة المخزومي ، وكان ابن أخته أم هاني ، وقال عن قصر الإمارة : إنه قصر خبال لا تُنزلونيه .

صفّين : المنعطف الخطير :

وكانت لاتزال أمام الإمام عقبة كأداء لابد من تجاوزها حتى يقيم العدالة ويجري أحكام اللـه ، فهذا معاوية ابن أبي سفيان قائد الردة الجاهلية يعبئ إليه كل الحاقدين على الإسلام ، والموتورين وبقايا العهد البائد ، ويجمع إليهم الطامعين والأثرياء المترفين . وقد أركز نفسه في الشام منذ أن ولاه عليها الخليفة الثاني بعد وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ، قائد جيوش الشام . وقد حاول الخليفة الثاني جلب رضا بني أمية - القوة السياسية والعسكرية الأكثر تماسكاً والأبعد عن الدين - وقد زعم الحزب الأموي أن الشام قد أضحت إقطاعة خالصة لهم وإلى الأبد ، فركز قواه العسكرية هناك ولم يتصور أنَّ حاكماً في البلاد يجرؤ على مطالبتهم بها ، مادام الخليفة الثاني الأقوى بين الخلفاء غض طرفه عما يجري في الشام من تدعيم وجود الحزب المنافس للإسلام ، وكان يستثني الشام من قوانينه المشددة ، كقانون من أين لك هذا الذي اخترعه لمقاومة الترف الذي هبط إليه الحكام الجدد ، حتى أبو هريرة الراوية المعروف ، لم ينج من هذا القانون الصارم ، ففقد الكثير مما جمعه في البحرين تبعاً له ، بينما معاوية وحزبه الأموي ، الذي كان يرسي قواعد ملكه العضوض في الشام ، ويجمع الثروات الطائلة ، ويغدق الهبات السخية على المنتفعين ، كان يُستثنى منهم . وحينما قيل له في ذلك برر سكوته عنه بأنه يمثل عز الإسلام ، ولا تظن أنه كان قادراً على ضبط معاوية دون أن يدفع ثمناً باهضاً . وفعلاً قد دفع حياته ثمناً لبعض الضغط على الحزب الأموي في العاصمة وليس في الشام .

هكذا زعم معاوية أن بإمكانه أن يبقى حاكماً على الشام في عهد الإمام (ع) وما راعه إلاّ حكم علي (ع) بفصله وتولية غيره !!

وكان الإمام (ع) أعلم من غيره بواقع معاوية ، وأن مسيره إليه لايعني النصر عليه بالتأكيد ، إذ أن جيش معاوية المتماسك ذي الولاء الجاهلي ، يختلف عن جيشه الذي تتضارب أهواؤهم ولم يخلص ولاؤهم ، بالرغم من وجود قلة مؤمنة فيهم .

وقد صرح بذلك في أكثر من مناسبة فقال لجيشه مرة :

" يا ليت معاوية يبادلني جيشه صَرْفَ الدينار بالدرهم ، يعطي واحداً ويأخذ عشرة ! " .

وقبل المسير إلى الشام قال أحد قادة جيش الإمام للثاني وهو يسمعهما ، إن يومنا ويومهم ليوم عصيب لا يصبر عليه إلاّ كل مشبع القلب ، صادق النية . رابط الجأش . وأضاف القائل وهو زياد بن النضر الحارثي لعبد اللـه بن بديل قال : وأيم اللـه ما أظن ذلك اليوم يبقي منا ومنهم إلاّ الأرذال . فقال له صاحبه : وأنا واللـه أظن ذلك . فنظر إليهما الإمام (ع) وكأنه يؤيدهما ، ولكنه يطالبهما بمراعاة ظروف الحرب ، وقال :

" ليكن هــذا الكلام مخزوناً في صدوركما لاتظهراه ولا يسمعه منكما سامع . إن اللـه كتب القتل على قوم

والموت على آخرين ، وكل آتيه منيته كما كتب اللـه له ، فطوبى للمجاهدين في سبيل اللـه . والمقتولين في طاعته " (١٤).

هكذا كان يجري الحوار بين قيادات الجيش وهكذا كان الإمام (ع) يحدد الهدف من القتال وهو ابتغاء رضوان اللـه . ومقاومة المفسدين مهما كانت العواقب .

معاوية يعترف ويعاند :

ومعاوية - بدوره - كان يعترف بفضائل الإمام (ع) وأنه الأفضل بعد رسول اللـه (ص) إلاّ أنه كان يتمسك بقميص عثمان ، ويرى أنه أحق الناس به . وإذا كانت حجة معاوية واهية فإن دهاءه ومكره وأسباب القوة التي اجتمعت عنده كان يغنيه عن قوة الحجة . وكان يعترف بذلك مما يكشف عن طبيعة الصراع بينه وبين الإمام (ع) .

وقد حفظ التاريخ سجلاً كبيراً من اعترافات معاوية بفضل الإمام (ع) وبالذات في الرسائل الخاصة المتبادلة بينه وبين كبار الأصحاب ، ولكن الرسالة الأبلغ كانت التي بعثها إلى محمد بن أبي بكر ، وكان محمد من أشد المدافعين عن نهج الإمام علي (ع)

. لقد بعث معاوية إلى محمد ابن ابي بكر كتاباً جاء فيه من معاوية بن أبي سفيان إلى الزاري على أبيه محمد بن أبي بكر : سلام على أهل طاعة اللـه .

أما بعد ، فقد أتاني كتابك ، لرأيك فيه تضعيف ، ولأبيك فيه تعنيف . ذكرت حق ابن أبي طالب ، وقديم سوابقه وقرابته واحتجاجك بفضل غيرك لا بفضلك . فأحمد إلهاً صرَف الفضل عنك وجعله لغيرك . وقد كنا - وأبوك معنا - في حياة نبيّنا نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا ، وفضله مبرزاً علينا ، فلما اختار اللـه لنبيّه (صلىا لله عليه وآله) ما عنده كان أبوك وفاروقُه أول من ابتزَّه وخالفه ، ثم قام عثمان يهتدي بهديهما ويسير بسيرتهما إلخ (١٥).

وهكذا يعترف معاوية بفضل الإمام عليه وعلى كل أصحاب الرسول محاولاً إثارة عصبية محمد بن أبي بكر .

وفي حوار جرى بين معاوية وعمر بن العاص الذي كان من قادة العرب في الجاهلية ، وكان حليفاً تاريخياً لبني أمية ، قال له معاوية : يا أبا عبد اللـه ، إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى ربه ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم .

قال عمرو : إلى من ؟

قال : إلى جهاد علي .

فقـال له عمرو : ما أنت وعلي بِعِكْمَي(١٦) بعير ، مالك هُجرتُـه ، ولا سابقتُه ، ولا صحبته ، ولا جهـاده ،

ولا فقهه ، ولا علمه . واللـه إن له - مع ذلك - حَداً وحدوداً ، وحظاً وحظوة وبلاء من اللـه حسناً .

فما تجعل لي إن شايعتك على حربه ، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر ؟

قال : حكمك .

قال : مصرَ طُعمة .

فتلكأ عليه معاوية .

قال له : إني أكره لك أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لعرض الدنيا . قال : دعني عنك .

هكذا تم التحالف بين معاوية وبين قائد جاهلي جمع خبرة العرب في الحرب .

وبعد إجراء هذه الصفقة التي تعكس طبيعة التجمع الأموي غضب مروان - وهو أحد القيادات الأموية - وقال : ما لي لا أُشْتَرَى كما اشْتُرِي عمرو ؟. فقال له معاوية : إنما تُباع الرجال لك (١٧).

وكان يشير معاوية بذلك إلى أن مروان جزء من الحزب الأموي وأنه إنما يسعى لإعادة أمجاده الجاهلية .

ومرة أخرى اعترف معاوية لقراء الشام ، وهم الطائفة المؤمنة فيهم ، اعترف بفضل الإمام (ع) فحين قالوا له : علام تقاتل عليّاً وليس لك مثل صحبته ولا قرابته ولا سابقته ؟. قال لهم : ما أقاتل عليّاً ، وأنا أدعي أن لي في الإسلام مثل صحبته ، ولا هجرته ، ولا قرابته ، ولا سابقته .

ولكنه تشبث عندهم بقميص عثمان فقال لهم : ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً ؟

قالوا : بلى .

قال : فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به ، ولا قتال بيننا وبينه (١٨).

ولكن الإمام (ع) أجاب عن هذا الطلب الماكر ، فقال : في رسالته إلى معاوية نقلها المبرد في الكامل هذا نصها :

من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إلى معاوية بن صخر بن حرب .

أما بعد :

" فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده . دعاه الهوى فأجابه ، وقاده الضلال فاتَّبعه . زعمتَ أنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنتُ إلاّ رجلاً من المهاجرين ، أوردتُ كما وردوا ، وأصدرتُ كما صدروا ، وما كان اللـه ليجمعهم على الضلال ولا يضربهم بالعمى .

وبعد : فما أنت وعثمان ؟. إنما أنت رجل من بني أمية ، وبنو عثمان أولى بذلك منك .

فإن زعمت أنك أقوى من دم أبيهم منهم ، فادخل في طاعتي ثم حاكِمِ القومَ إليّ أحملك وإياهم على المحجة " (١٩).

هكذا أتم الإمام (ع) الحجة على معاوية بما يلي :

أولاً : بأن شرعية عمله منبثقة من أنه إجماع المهاجرين الذين لايجمعهم اللـه على الضلال .

ثانياً : بأن بني عثمان هم أولياء الدم ، وليس معاوية .

ثالثاً : بأن طريقة المطالبة بالدم ، هي التحاكم إلى السلطة الشرعية وليست التمرد عليها باسم المطالبة بالدم .

إلاّ أن معاوية لم يكن يأبه بهذه الحجج ، لأنه كان يسعى لإعادة أمجاد بني أمية الجاهلية . وقد اجتمع إليه الموتورون الحاقدون على الإسلام ، من بقايا العهد البائد . وقد أقام لهم نظام مصالح ، وحوَّل السلطة الى شركة مساهمة ، بين الطلقاء والأدعياء والمترفين .

وهكذا جرى تبادل رسائل بين الإمام (ع) ومعاوية ردحاً من الزمن ، وقد قام أهل الإصلاح بمحاولات شتى لردع معاوية عن سفك دماء المسلمين ، فلم يفلحوا . وفي آخر رسالة بعثها الإمام (ع) قبل قراره بالمواجهة العسكرية كتب يقول (بعد حديث طويل) :

" وإني أدعوكم إلى كتاب اللـه وسنَّة نبيّه ، وحقن دماء هذه الأمة . فإن قبلتم أصبتم رشدكم ، وإن أبيتم إلاّ الفرقة وشق عصا هذه الأمة ، لن تزدادوا من اللـه إلاّ بُعْداً ، والسلام " .

فكتب إليه معاوية :

ليس بيني و بين قيس عتابٌ غير * طعن الكلى وضرب الرقاب(٢٠)

وكان الجواب بمثابة إعلان حالة الحرب . فكتب الإمام (ع) إلى عماله في الآفاق يحرضهم للقتال ، كما عبَّأ قدرات جيش الكوفة العسكرية ، بخطب حماسية لاهبة . وقد ساهم نجلاه الإمامان الحسن والحسين (ع) وأصحاب رسول اللـه ، وبالذات البدريون وأصحاب بيعة الرضوان منهم ساهموا - بما كان لديهم من مكانة مرموقة بين المسلمين - في تعبئة الطاقات الإيمانية في الأمة .

ولقد كان مع الإمام (ع) من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً ، منهم سبعة عشر من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار . وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة (بيعة الرضوان) تسعمائة ، وكان مجمل عدد أصحاب رسول اللـه ، في ركب الإمام (ع) ألفين وثمانمائة رجل (٢١).

وكان الإمام (ع) يعطيهم مكانتهم المناسبة لهم ، وهم - بدورهم - كانوا متفانين في الدفاع عن حق الإمام في الخلافة ، لمعرفتهم بفضله ، وعلمهم بواقع بني أمية ، أعدائه وأعداء الإسلام .

وهكذا نجد الإمام (ع) لا يبت في أمر ، إلاّ بعد أن يستشيرهم ، ولم يعقد العزم على الحرب إلاّ بعد أن سألهم وقال وهو يخاطبهم :

" أما بعد !. فإنكم ميامين الرأي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركو الفعل والأمر . وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم " (٢٢).

فبادروا بالتأييد ، واستشهد كل منهم بحجة بالغة في شرعية قتال بني أمية .

فقال عمار بن ياسر : يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن لاتقيم يوماً واحداً فأشخص بنا قبل استعار نار الفجرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى رشدهم وحظهم . فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلاّ حربنا ، فواللـه إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم ، لقربة عند اللـه ، وهو كرامة منه (٢٣).

أما عدي بني حاتم ، فقد أوضح خلفية بني أمية في القتال ضد الإمام (ع) وقال :

إن القوم لو كانوا لله يريدون ، أو لله يعملون ما خالفونا . ولكن القوم إنما يقاتلون فراراً من الأسوة وحبّاً للأثرة ، وضنّاً بسلطانهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحنٍ في أنفسهم ، وعداوة يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها - يا أمير المؤمنين - بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم .

ثم التفت إلى الناس فقال :

كيف يبايع معاوية عليّاً ، وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده عتبة في موقف واحد (٢٤).

لقد لخص هذا الصحابي الجليل طبيعة الموقف في كلمات . فإن الحزب الأموي يطلب الدنيا ويحاول الحفاظ على مكاسبه في السلطة ، ويريد الإنتقام من الإمام (ع) والتابعين له ، لما أنزلوا به هزائم نكراء في صدر الإسلام . وإنها بالتالي الردة الجاهلية بكل معنى الكلمة .

هكذا نجد أصحاب النبي محمد (ص) يجتهدون في الدفاع عن الخلافة الراشدة ، وقد استشهد الإمام (ع) في أكثر من مناسبة بموقف الأصحاب منه ومن بني أمية .

وفي المعركة شكل الإمام كتيبة خاصة بهم يقودها شخصيّاً ، سميت بالكتيبة الخضراء .

وقد أبلت هذه الكتيبة في الدفاع عن الإسلام وحرماته بلاءً حسناً .

والواقع أن حضور هذه الكتيبة في معركة صفّين كان دليلاً على عافية الأمة ويقظة ضميرها ، فبعد وفاة الرسول (ص) بربع قرن حفل بالأحداث السياسية العظيمة ،

ولاتزال الفئة التي نصرت الرسالة وتعرضت للآلام وقدمت التضحيات ، لاتزال تخوض غمار معركة الحق ضد الباطل ، دون أن تميل مع رياح الشهوات وعواصف السياسة .

ومن المعروف أن كثيراً من هؤلاء الصحابة الكرام كان قد تقدم بهم العمر ، حتى بلغوا من الكبر عتيّاً ، ولكنهم لايزالون في مقدمة المجاهدين ، وفيهم عمار بن ياسر ، الذي فقد والديه شهيدين في صدر الإسلام ، وتعرض للضرب والإهانة منذ الأيام الأولى للبعثة ، وهو اليوم يناهز التسعين من عمره ويشد على وسطه حزاماً تنتصب قامته به ، ثم يدخل المعركة ، وهو ينادي الرواح الرواح إلى الجنة !. هكذا يصنع الإيمان بالقلوب الطاهرة والنفوس الزكية .

هكذا وقعت الواقعة :

في البلاد الإسلامية جيشان جيش الشام وجيش الكوفة ، وها هما يلتقيان لا ليحاربا عدوّاً مشتركاً ، وإنما ليتحاربا . فكم كانت الصدمة عنيفة في نفوس المسلمين ، وكم مشى رجال طيبون ، وكم سعى الإمام (ع) لردع معاوية عن هذا الغي والفساد العريض .

فمنذ أن التقى الجيشان بعث الأمام كبار قادته ، إلى معاوية وقال لهم : ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى اللـه عزَّ وجلَّ وإلى الطاعة والجماعة .

ولكنه يرفض إلاّ المطالبة بدم عثمان - كما يزعم - ويحاول أن يستخدم الوسائل الحربية التي كانت شائعة في الجاهلية . فلقد كتب في سهم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات ، فيغرقكم فخذوا حذركم ، ويرمي به إلى معسكر الإسلام فيقع السهم بيد رجل فينقل الخبر إلى الآخرين ، وكالعادة تنتشر الشائعة في المعسكرات سريعاً ، ويرتحل الجيش عن الشريعة ويهجم معاوية عليها . ولكن أصحاب الإمام لايلبثون أن يزحزحوه عنها .

وعندما منع معاوية الماء - بعد سيطرته على الشريعة - عن أصحاب الإمام ، وأمر الإمام بكسر الحصار عنها ، وقال كلمته المشهورة :

" الحياة في موتكم مقهورين ، والموت في حياتكم قاهرين " .

وزحف أصحاب الإمام (ع) نحو الماء وهزموا أعداءَهم ، واستولوا عليه . وزعم البعض أن الإمام سوف يقابل أعداءه بالمثل لأن الحرمات قصاص .

ولكنه رفض ذلك بقوة ، وأرسل إلى معاوية رسولاً وأخبره بأن السبيل إلى الشريعة سالك وبإمكان جيشه الورود إليها متى ما شاؤوا .

صور من معارك صفّين :

وبدأت المعارك وكانت في صورة مناوشات على الأطراف ، وكانت القوى متكافئة في الأغلب . بيد أن دوافع الحرب كانت مختلفة ، فبينما نجد العصبية الجاهلية توقد نار الحرب عند جيش الشام ، نجد الروح الإيمانية في أصحاب علي (ع) تحثهم على الجهاد والشهادة . فهذا قائد أموي كان يعدُّه معاويةُ وَلَدَهُ ، واسمه عبد الرحمن بن خالد ، يبارز قيادة جيش الإمام المتمثلة في تلك المعركة بعدي بن حاتم ويرتجز قائلاً :

قـل لعدي ذهـب الـوعـيـدُ * أنـا ابن سيـف الله لا مزيدُ
وخـالد يـزينه الـوليـــدُ * فـمـا لنا ولا لهـم مَحـيـدُ
عن يومنا ويومكم فعــودوا

إنك تراه كيف يفتخر بنسبه حتى تعود إلى أذهاننا ذكريات الجاهلية حيث كان الشخص يفتخر بآبائه وعشيرته .

و لكن عدي بن حاتم - بالرغم من مفاخره العظيمة - يذكر في رجزه الحربي دافعه الإيماني ويقول :

أرجو إلهــي وأخــاف ذنبي * وليس شيءٌ مثــل عفوِ ربِّي

وقد أفصح عبيد اللـه بن عمر ، وكان في صف معاوية عن خلفيات الحرب ، وذلك حينما الْتَقى بالإمام الحسن المجتبى في أرض المعركة فقال :

إن أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً ، وقد شنأوه . فهل لك أن تخلعه ونوليك هذا الأمر ؟

وهكذا كشف عن الأحقاد الجاهلية التي طفحت بها قلوب قريش وهم قيادات ذلك الجيش .

ولكن الإمام الحسن (ع) رده بقوة وقال : كلا ، وأضاف :

" لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك . اما إن الشيطان قد زين لك وخدعك حتى أخرجك خلقاً بالخلوق ، ترى نساء أهل الشام موقفك ، وسيصرعك اللـه ، ويبطحك لوجهك قتيلاً " .

هكذا قاتل عمار بن ياسر :

قام عمار بن ياسر فخطب في القوم يحرضهم على معاوية ويكشف حقيقة المعركة ، وخلفياتها فقال :

امضوا عباد اللـه ، إلى قوم يطلبون - فيما يزعمون - بدم عثمان ، واللـه ما أظنهم يطلبون دمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبُّوها واستمرأوها ، وعلموا لو أن الحق لزمهم لحَالَ بينهم وبين ما يرغبون فيه منها . ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون لها الطاعة والولاية ، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا : قُتل إمامنا مظلوماً ، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً ، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون . ولولا هي ، ما بايعهم من الناس رجلان .

ثم التقى بعمرو بن العاص فقال له : يا عمرو بعت دينك بمصر ؟. تبّاً لك ، وطالما بغيت الإسلام عوجاً .

ثم حمل على القوم ، وهو يرتجز بأبيات تفيض إيماناً ويقيناً ، وتعكس شخصية عمار الجهادية وهو يومئذ يناهز التسعين من عمره :

صـدق اللـه وهو للصـدق اهـلٌ * وتعـالى ربِّـي وكـان جـلـيلا

ربِّ عجِّلْ شهـادة لـي بقـتـل * فـي الـذي قد أحُب قتـلاً جميلا

مقبـلاً غـير مدبـرٍ ، إن لـلقـتـ * ـلِ على كل ميـتـة تـفضـيـلا

إنهم عنـد ربهـم فـي جـنـان * يشربون الـرحـيق والسلسبيلا

من شراب الأبرار، خالطه المسـ * ـك وكأسـاً مزاجهـا زنجبـيلا

ثـم قال : اللـهم إنك تعلم أني لو أعلم أن رضاك أن أقذف بنفسي في هذا البحر لَفعلت . اللـهم إنك تعلـم أني لو أعلم أن أضع ظُبة سيفي في بطني ثم أنحني عليها حتى يخرج من ظهري لَفعلت ، ولو أعلم اليوم

عملاً هو أرْضَى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين لَفعلته (٢٥).

وبهذه الروح الإيمانية المتسامية ، حارب الصفوة من أصحاب الرسول (ص) معاوية والمنافقين معه . لقد كانت الشهادة غاية مناهم ، وكانوا على يقين أنهم على حق . وأن عدوهم طالب ملك وباغي دنيا ..

وهكذا تقدم عمار بين الصفين ونادى : أيها الناس ، الرواحَ إلى الجنـة ، فلما بصر راية عمرو بن العاص ، قال : واللـه إن هذه الراية قد قاتلتها ثلاث مرات ، وما هذه بأرشدهم. ثم قال :

نحـن ضـربنـاكم علـى تنـزيله * فـاليـوم نضربكـم علـى تأويلـه

ثم استسقى - وقد اشتد ظمأه - فأتته امرأة بضياح من اللبن ، فقال حين شرب الأجنة تحت الأسنة :

اليوم ألقى الأحبّة محمداً وحزبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لعلمنا انا على الحق وهم على باطل (٢٦).

هكذا تقدم الشيخ العظيم الذي التحق بمسيرة الرسالة منذ شبابه ، ولم يتخلف عن أية مهمة أوكلت إليه ، ودفعه النبي (ص) إلى مستوى الصديقين ، ولم تأخذه في الله لومة لائم . تقدم إلى الشهادة ببصيرة نافذة ، وخطى ثابتة ، وهو يحمل معه صحيفته المضيئة ، ذات التسعين صفحة مشرقة ، فلما توسط المعركة حمل عليه اثنان من المجرمين (أبو العادية الفزاري ، وابن جون) فقتلاه ، فألزم الله بقتله الحجة على أهل الشام ، إذ قال الرسول الأكرم (ص) يوماً :

" آخر شرابك من الدنيا ضياح من لبن ، وتقتلك الفئة الباغية " .

فلما انتشر خبر مقتله في معسكر أهل الشام ، وكاد يؤثِّر على معنوياتهم ، قال معاوية إن عليّاً هو الذي قتله ، لأنه هو الذي أخرجه لقتالنا . ولقد كان معاوية قد استخف قومه فأطاعوه ، وهكذا كان يتعامل مع سائر النصوص الدينية .

الدفاع بكل وسيلة :

لقد كانت معارك صفّين غريبة ، فمعاوية كان قد أعد جيشه إعداداً جيداً ، وكانت إلى جانبه القيادات العربية العريقة ، والقبائل التي دخلت الإسلام بعد الفتح حاملة معها رواسبها وتقاليدها وطاعتها لشيوخها . وقد استفاد من خبرة الروم بحكم احتكاكه بحضارتهم في الشام ، وجهّز جنوده بأفضل الأسلحة ، ومنّاهم بالأموال التي تكدست عند الحزب الأموي ، منذ أيام الجاهلية وتضاعفت على عهد عثمان .

وفي الجانب الآخر كانت التعبئة الروحية عند أنصار الإمام (ع) في القمة ، فها هم أصحاب رسول الله (ص) وعددهم ألف وسبعمائة ، بينهم كبار المهاجرين وبقية البدريين ، والمشتركين في بيعة الرضوان ، يتبعهم جيش من قراء القرآن والعُبَّاد وأصحاب البرانس ، وما نمى وتبارك من الجيل القرآني ، ومن ورائهم القبائل العربية التي اتَّبعت هذا الخط بدافع أو بآخر .

وحين التقى الفريقان ، كانت الكفة متعادلة تقريباً ، ولذلك قلما كانت المعارك حاسمة ، وأنقل إليكم صورة معبرة واحدة من هذا التعادل :

يقول زياد بن نصر الذي كان في مقدمة جيش الإمام (ع) :

شهدت مع علي بصفّين ، فاقتتلنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ، حتى تكسرت الرماح ، ونفدت السهام ، ثم صارت إلى المسايفة ، فاجتلدنا بها إلى نصف الليل ، حتى صرنا نحن وأهل الشام في اليوم الثالث يعانق بعضنا بعضاً . وقد قاتلت يومئذ بجميع السلاح فلم يبق شيء من السلاح إلاّ قاتلت به ، حتى تحاثينا بالتراب وتكادمنا ، حتى صرنا قياماً ينظر بعضنا الى بعض ما يستطيع واحد من الفريقين أن ينهض إلى صاحبه ولا يقاتل .

فلما كان نصف الليل ، من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف ، وغلب علي على القتلى ، وأقبل على أصحاب محمد وأصحابه فدفنهم ، وقد قتل كثير منهم ، وقتل من أصحاب معاوية أكثر (٢٧).

الإمام (ع) يقـود المعـارك :

في صفّين تجلَّى علي بشجاعته وبطولاته وصدق مواقفه ، لقد ذرَّف الآن على الستين ، ولقد تواردت عليه مصائب لو نزل بعضها على الجبال لانهدَّت ، ولكنه سيد المتقين الذي يتعالى على قمم الجبال .

مواقفه في صفّين تعكس جانباً من تلك الروح العظيمة ، وذلك الإيمان الصادق .

لقد أرسل الإمام (ع) إلى معاوية أنِ ابْرُزْ إِلَيَّ واعفُ الفريقين من القتال ، فأيُّنا قتلَ صاحبه كان الأمر له .

فانظروا إلى هذه البطولة .. إنه يستعد لافتداء المسلمين بنفسه . ولكن معاوية قال في الجواب بالحرف الواحد : إني أكره أن أبارز الأهوج الشجاع ، ثم نظر إلى عمرو بن العاص الذي شجعه على قبول تحدي الإمام (ع) قائلاً : لقد انصفك الرجل ، نظر إليه وقال : لعلك طمعت فيها يا عمرو !

أما عمرو بن العاص الذي كان يعتبر من دهاة العرب ، ومن القيادات العربية العريقة في الجاهلية ، فقد أراد أن يأخذ الإمام (ع) على غرة ، فحمل عليه الإمام ، فلما كاد يخالطه رمى بنفسه عن فرسه ورفع ثوبه وشغر برجله فبدت عورته ، فصرف عليٌّ (ع) وجهه عنه ، وقام معفراً بالتراب هارباً على رجليه معتصماً بصفوفه فقال القوم :

أفلت الرجل يا أمير المؤمنين .. قال : وهل تدرون من هو ؟. قالوا : لا ، قال : إنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه (٢٨).

وفي موقعة أخرى برز عروة بن داود الدمشقي إلى الإمام (ع) فضربه ضربة علوية فقدَّه نصفين وقع نصفه يمنة ونصفه يسرة ، فارتج العسكر ، وخاطبه الإمام (ع) بعد مقتله قائلا :

" يا عروة اذهب فأخبر قومك . أَمَا والذي بعث محمداً بالحق لقد عاينتَ النار وأصبحتَ من النادميـن " (٢٩).

فبرز إليه ابن عمه فألحقه الإمام (ع) بصاحبه . ومعاوية واقف على تل يبصر ويشاهد فقال : تبّاً لهذه الرجال وقبحاً . أَمَا فيهم من يقتل هذا مبارزة أو غيلة أو في اختلاط الفيلق وثوران النقع .

فقال الوليد بن عقبة : ابرز إليه أنت ، فإنك أولى الناس بمبارزته . فقال : واللـه لقد دعاني إلى البراز حتى استحيت من قريش . واللـه إني لا أبرز إليه (٣٠).

وذات مرة قال معاوية لجلسائه وهو يذكر نكوله عن مبارزة علي وكشف صاحبه عمرو عن سوأته للفرار عنه :

" إن الجبن والفرار من عليٍّ لا عار على أحد فيهما " (٣١).

هكذا تجلى الإمام ببطولاته - التي صنعها في حروب الإسلام الأولى ضد قريش وبني أمية بالذات - تجلى في الوقت الذي كان أميراً للمؤمنين ، والقائد العام للجيش الإسلامي ..

وإننا لو أطَّلعنا على ساحة المعركة في صفّين ، ورأينا أصحاب محمد (ص) يلتفون حول قائدهم الإمام علي (ع) ، وقد تراوحت أعمارهم بين الخمسين والتسعين عاماً ، وهم الرواد الأوائل ، وطلائع الرسالة ، وحملة راية التوحيد في الأرض ، وهم قادة الأمة بلا منازع ، لاستبدَّ بنا العجب !. سبحان اللـه ، ما أروع هذا المشهد !. ماالذي جعل هؤلاء الشيوخ يشكلون كتيبة خاصة بهم باسم الكتيبة الخضراء ؟ وماالذي جعلهم يرخصون أنفسهم ؟ وما الذي أخرجهم إلى الحرب وهم كرام سواء خاضوا حرباً أم استقروا في بيوتهم ؟!.

إنه الإسلام ، وهم الجيل القرآني ، والقرآن يصوغ شخصية الإنسان بحيث تتحدى حاجز السنين ، وتتعالى على الماديات . لقد أحس القوم بالردة الجاهلية التي يقودها

بنو أمية ، فلم يألوا جهداً في مقاومتها ، وأقروا عين حبيبهم ومربيهم وقائدهم ، النبي محمد (ص) بفعلهم .

ما فاته بالشجاعة أخذه بالمكر :

كانت التعبئة الروحية ، أعظم قوة اعتمد عليها جيش الرسالة ، وبالرغم من أنها صنعت بطولات نادرة ، إلاّ أن حجمها كان دون مستوى النصر النهائي . فلما استمرت الحرب طويلاً بدأ المتخاذلون يتنامون في صفوف الجيش الرسالي . أمَّا معاوية الذي لم يتورع عن التوسل بأية طريقة مهينة لنيل النصر ، فقد عرف كيف يستفيد من الصعوبات التي ازدادت في صفوف جيش الإمام . لم تكن أكثرية الجيش عند الإمام في مستوى فهم الصراع الرسالي - الجاهلي . وإن الذي يطلع على تاريخ صفّين يتمزق ألماً ، كيف كانت حيل معاوية تنطلي عليهم ، وكيف كان الإمام يستخدم براعته وبلاغته ، وقوة شخصيته ، وحضوره الدائم عند كل حادثة ، بل وجولاته الحربية المباشرة ، لكي يُفشل خطط معاوية الماكرة ..

لقد سأله - ذات مرة - بعض اصحابه كيف لم ننتصر حتى الآن على معاوية ؟. فأمره أن يدنو منه ثم ناجاه :

" إن قوم معاوية يطيعونه ، ولا يطيعني قومي " .

وكم كان يؤلم ذلك القلب الكريم الذي غمره حب الرسالة ، جهل المسلمين بها ، وتفرقهم عن الحق .

وكان معاوية يعرف ذلك ولا يكف عن محاولاته للتأثير على معنويات جيش الإمام ، وبث الفرقة فيهم . وحتى لو فشلت سائر حيله فإن نجاح واحدة منها كفيلة بإنقاذه من ورطته وإعطائه فرصة العودة إلى مؤامراته الخبيثة !

وهكذا خطط هذه المرة بطلب الصلح ، والتحاكم إلى القرآن الكريم .

في بداية الحرب ندب الإمام (ع) واحداً من فتيان الأنصار ليحمل القرآن إلى معسكر معاوية ، ويطالبهم بالتحاكم إليه ، وقد بشره بالشهادة في هذا السبيل ، وضمن له الجنة ، فأسرع الفتى إلى القوم ، وهو يحمل كتاب اللـه على يديه ، ويطالبهم بالنزول على حكمه ولكنهم أمطروه بوابل من السهام فسقط شهيـداً ، وسقط إلى جنبه كتاب اللـه العزيز .

ولكن معاوية يجد نفسه مهزوماً لا محالة ، وقد بدأ جيشه يولي الدبر أمام صولات جيش الإمام وبالذات أمام هجمات القائد المغوار مالك الأشتر ، الذي أخذ يزيد من ضغطه على جيش الشام .

واستشار معاوية عمراً (ذلك الداهية المعروف) فأشار عليه بحمل المصاحف ، فإذا بهم يحملون على رماحهم ما يشبه المصاحف ويطالبون بحكم القرآن .

ولعل جواسيس معاوية في جيش الإمام كانوا وزعوا الأماني على أصحاب القلوب المريضة فوعدوا قيادات الجيش الكوفي ، الذين عصرهم الإمام بعدالته ومساواته عصراً ، المزيد من الأموال والمناصب .

فإذا بالحيلة تنطلي على الغوغاء ، ولا تقف دونها القيادات العميلة ، ولم تنفع شيئا محاولات الإمام (ع) والقيادات الرسالية الراشدة في توعية الغوغاء أو ردع العملاء .

فلنستمع إلى التاريخ وهو يروي قصة المؤامرة الكبرى ، لعلنا ننتفع بها عبرة لما يشبهها اليوم .

روى نصر بن مزاحم أن عليّاً (ع) غلس بالناس في صلاة الغداة يوم الثلاثاء عاشر ربيع الأول سنة ٣٧ - وقيل عاشر صفر - ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر القرآن ، والناس على راياتهم ، وزحف إليهم أهل الشام ، وقد كانت الحرب أكلت الفريقين ، ولكنها في أهل الشام أشد نكاية وأعظم وقعاً .

ثم تمضي الرواية تنقل كيف الْتَقى الجمعان في واقعة عظيمة كادت تُفني الطرفين ، مما سمي ليلة الهرير ، حيث استمر القتال من صلاة الغداة إلى نصف الليل ، ومرت مواقيت أربع صلوات لم يسجدوا لله فيهن سجدة ، ولم يصلوا لله صلاة إلاّ التكبير ، ثم استمر القتال من نصف الليل إلى ارتفاع الضحى ،

وافترقوا على سبعين ألف قتيل ، في ذلك اليوم وتلك الليلة (٣٢).

والإمام علي (ع) في القلب ، بينما ابن عباس في الميسرة ، والأشتر في الميمنة .

والإمام يحرض القوم ، ويدعو الرب ، ويجالد بالسيف حتى يقول الراوي :

لا واللـه الذي بعث محمداً بالحق نبياً ، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق اللـه السماوات والأرض ، أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب (أي الإمام عليه السلام) يخرج بسيفه منحنياً فيقول : معذرة إلى اللـه وإليكم من هذا ، لقد آن أفلقه ، ولكن حجزني عنه أني سمعت رسول اللـه (ص) يقول كثيراً :

لا سيــف إلاّ ذو الفقــا ر * ولا فــتــى إلاّ عـلـــــي

وأنا أقاتل به دونه (ص) .

قال (الراوي) فكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيقتحم به في عرض الصف ، فلا واللـه ما ليث بأشد نكاية منه في عدوه .

وخطب الإمام في الناس وقال :

" أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلاّ آخر نفس . وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا . وأنا عادٍ عليهم بالغداة ، أحاكمهم إلى اللـه عزَّ وجلَّ " (٣٣).

فبلغ ذلك معاوية فاستشار عمرو بن العاص ، فقال له فيما قال : ألق إليهم أمراً إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا . أدعهم إلى كتاب اللـه .

فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح .

وبالرغم من أن القيادات الرسالية قد حذروا من مكر معاوية ، وقال عدي بن حاتم للإمام : (وقدجزع القوم ، وليس بعد الجزع إلاّ ما تحب فناجز القوم) ، وهكذا قال مالك الأشتر وعمرو بن الحمق وآخرون .

إلاّ أن أكثرية الناس كانوا قد ملّوا الحرب فقالوا : أكلتنا الحرب وقتلتِ الرجال ، فقال الإمام (ع) :

" إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد واللـه أخذت منكم الحرب وتركت ، وأخذت من عدوكم فلم تترك . وإنها فيهم أنكى وأنهك ، إلاّ أني كنت بالأمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت منهيّاً ، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون " (٣٤).

وبعد ان رضينا بالتحاكم ، وتقرر أن يختار كل فريق شخصاً يتفاوضان في شؤون الخلافة ، واختار معاوية عمرو بن العاص . ذلك الداهية المعروف والطامع في ولاية مصر بعدئذ وقع الإختلاف - مرة أخرى - في أصحاب الإمام . فبينما اختار لهم الإمام عبد اللـه بن العباس ، وقال :

" إن عمراً لا يعقد عقدة إلاّ حلها عبد اللـه ، ولا يحلُّ عقدة إلاّ عقدها " .

فقال الأشعث : لا واللـه لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة .

فاختار لهم مالك الأشتر ، فرفضوا ، وقالوا له سعَّر الارض علينا ، غير الأشتر .

فاصروا على اختيار أبي موسى الأشعري ، والذي اعتزل الإمام وخذَّل الناس عنه .

وفي الواقع إن أصحاب الإمام (ع) كانوا طوائف شتى ، المخلصون ، والمنافقون ، والمتطرفون ، الذين اشتركوا في القيام ضد عثمان ، وكانوا يظنون أنهم أحق بالأمر من علي وأصحابه !! وهم الذين انتهى بهم المطاف إلى التمرد على الإمام وسُمُّوا بالخوارج.

قصة الخوارج :

بعد ان كتب الطرفان وثيقة الصلح ، ووقَّع عليها كل من الإمام ومعاوية ، دار بها أبو موسى الأشعري على عسكر الإمام ، فلما مرّ برايات بني راسب قالوا : لا نرضى ، لا حكم إلاّ لله ، فلما أخبر الإمام قال له : هل هي غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ قال : لا .

صحيح أن أهل الكوفة كانوا قد تعبوا من الحرب ، إلاّ أن أوارها كان لايزال يتقد في أفئدة الكثيرين . فلما بادر المتطرفون بإعلان التمرد ، انتشرت دعوتهم كالنار في الهشيم . فما راع الإمام إلاّ نداء الناس من كل جانب : لا حُكم إلاّ لله ، لا الحكم إلاّ لله ، لا الحكم إلاّ لله ، يا علي لا حُكم لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين اللـه ، إن اللـه قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا في حكمنا عليهم .

وكلما نصحهم الإمام وذكَّرهم بان العهد لاينقض وقد جعلوا اللـه عليه وكيلاً ، أبوا إلا الحرب وقالوا للإمام بالحرف الواحد : تب إلى اللـه كما تبنا ، وإلاّ برئنا منك .

وعزز موقف الخوارج نتائج الحكمين حيث غرّر عمرو بن العاص بصاحبه أبي موسى الأشعري ، فاتفق معه على أن يخلعا كلاً من الإمام ومعاوية ، وقدم عمرو صاحبه فلما فعل أبو موسى قام عمرو وقال : إن هذا خلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية . وهكذا دعمت عاقبة التحكيم جانب المتطرفين

فاجتمعوا في منطقة " الحروراء " وبعث إليهم الإمام ابن عباس فناقشهم بالقرآن فلم يستجيبوا له ، فذهب إليهم بنفسه وسأل عن الرجل المقدَّم فيهم فقيل : يزيد بن قيس الأرحبي ، فذهب إلى خبائه وصلَّى ركعتين ، ثم قام وقال : هذا مقام من فلج فيه فلج يوم القيامة .

ثم التفت إلى الناس وقال :

أنشدكم اللـه ، أعلمتم أحداً كان أكره للحكومة مني .؟ . قالوا : اللـهم لا ، قال : أتعلمون بأنكم أكرهتموني حتى قبلتها ؟. قالوا : اللـهم نعم .

قال : فعلام خالفتموني ونابذتموني ؟. قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى اللـه ، فتب إلى اللـه منه واستغفره نَعُدْ إليك .

فقـال الإمام (ع) : إني أستغفر اللـه من كل ذنب ، فاستجابوا إليه ورجعوا معه إلى الكوفة ، وكانوا أكثر من ستة آلاف مقاتل .

ولكن يبدو أنهم - عند عودتهم إلى الكوفة - التقوا بالمدافعين عن التحكيم ، وهم أكثرية الجند ممن اتَّبع الأشعث ، فأثارهم هذا الأخير الذي كانت مواقفه الخيانية مشهودة في كل مكان ، وهو الذي أكره الإمام على التحكيم أول مرة - فخرج القوم إلى منطقة تسمى بالنهروان فمر بهم مسلم ونصراني ، فقتلوا المسلم بعد أن عرفوا رأيه حول الإمام ، وتركوا الثاني قائلين لابد أن نحفظ ذمة نبيّنا ، وكأنَّ الإسلام لم يحقن دماء المسلمين !

والواقع : أن تنامي التطرف وانحسار الوعي ، وتهافت أسس التفكير عند القوم ، كان السبب في جرائمهم ، كما كان سبب انقراضهم ..

لقد كان عبد اللـه بن خباب من أصحاب رسول اللـه (ص) وكذلك والده خباب بن الأرت كان من أعظم أصحاب الرسول ، فمرَّ بهم عبد اللـه وفي عنقه قرآن ، ومعه زوجته الحامل ، وكانت في شهرها الأخير ، فأخذوه وقالوا له : إن هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك ، فقال لهم أحيوا ما أحياه القرآن ، وأميتوا ما أماته.

وفيما هم يحاورونه كانت تسقط تمرة من نخلة فيتناولها أحدهم ، فيصيحون به حتى يلفظها . ويمر بهم خنزير فيقتله أحدهم ، فينهرونه ويقولون هذا فساد في الأرض .

وعادوا إلى عبد اللـه بن خباب وقالوا له : ما تقول في أبي بكر وعمر وعلي قبل التحكيم ، وعثمان في السـت السنين الأخيرة من خلافته ؟. فأثنى عليهم خيراً . فقالوا : ما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة ؟. فقال : إن عليّاً أعلم باللـه ، وأشد توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرة .

فقالوا : إنك لا تتبع الهدى ، بل تتبع الهوى ، والرجال على أسمائهم ، ثم جروه إلى شاطئ النهر وذبحوه وجاؤوا بزوجته فبقروا بطنها ، وذبحوها مع ولدها إلى جانبه ! (٣٥).

وهكذا عاث الخوارج فساداً في الأرض وكادت روح القتال المتمردة على القيم تنتشر فيهم وهم أبناء الجزيرة العربية التي لاتزال أرضها تغلي بالدم والثار والعصبيات الدفينة .

ولولا أن الإمام (ع) بادر وسار إليهم لَكان يُخشى أن تشمل الفتنة كل أطراف بلاده .. فقد قصدهم للـتوّ ، ولمَّا بلغ مكاناً قريباً أرسل إليهم من يأمرهم بدفع قتلة الصحابي الجليل عبد اللـه بن خباب وزوجته وسائر من قتل من المسلمين على أيديهم . فقالوا له : كلّنا قتلة عبد اللـه . وأضافوا : ولو قدرنا على علي بن أبي طالب ومن معه لقتلناهم .

فمشى إليهم الإمام بنفسه ، وقال :

" أيها العصابة ، إنّي نذير لكم أن تصبحوا لعنة هذه الأمة غداً وأنتم صرعى في مكانكم هذا بغير برهان ولا سنَّة " .

وحاجّهم - مرة أخرى - ونصحهم بأن ينظمّوا إليه لقتال معاويــة ، وهو هدفهم المعلن ، فقالوا : كـلا لابد أن تعترف أولاً بالكفر ، ثم تتوب إلى اللـه كما تبنا حتى نطيع لك ، وإلاّ فنحن منابذوك على سواء .

فقال لهم : " ويحكم ، بم استحللتم قتالنا والخروج عن جماعتنا " .

فلم يجيبوه وتنادوا من كل جانب : الرواحَ إلى الجنة !. وشهروا السلاح على أصحابه وأثخنوهم بالجراح ، فاستقبلهم الرماة بالنبال والسهام ، وشد عليهم أمير المؤمنين وأصحابه ، فما هي إلاّ ساعات قلائل حتى صرعوا (٣٦).

وفتش الإمـام بين قتلاهم عن شخص اسمه مخرج وكان معروفاً بذي الثديَّة ، فلما وجده بعد بحث كثير ، كبَّر وكبَّر أصحابه لأن النبي (ص) كان قد أخبر عن هذه الفئة المارقة ، وأنبأ عن علامتهم بوجود هذا الشخص بينهم .

فالرواية تقول : لما عاد الرسول (ص) من حنين ، وبدأ تقسيم الغنائم قام إليه رجل من بني تميم ، يقال له الخويعة فقال له : إعدل يا محمد ! فقال (ص) : لقد عدلت . وأعاد إليه التميمي قوله ثانية فقال (ص) له : ويلك ، إن لم أعدل أنا فمن يعدل ؟.

وفي الثالثة رد عليه النبي (ص) بقوله :

" سيخرج من ضضيء هذا قوم يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرمية ، يخرجون على حين فرقة من الناس ، تحقرون صلاتكم في جنب صلاتهم ، يقرأون القرآن فلا يتجاوز تراقيهم بينهم رجل أسود مخرج اليدين إحدى يديه كأنها ثدي امرأة ، وفي رواية عائشة : يقتله خير أمتي من بعدي " (٣٧).

لقد أشار النبي (ص) بكلمته الرشيدة تلك إلى وجود طوائف قشرية جاهلة في الأمة ، وأنها ستظهر عند أول فرصة تسنح لهم ، وذلك حين تقع الفتنة . فهذا الرجل الذي

يأمر رسول العدالة بالعدل ، ويرى نفسه أحرص على القيم من ذلك الذي اختاره اللـه تعالى لرسالاته لا يشبه إلاّ الرجل الذي يأمر عليّاً (ع) بالتوبة والإيمان ، وهو ابن الإيمان ، وعلى أكتافه قامت قواعده وترسخت أسسه .

ولعل حرص الإمام (ع) على التفتيش عن جثمان ذي الثدية ، حيث بعث رجالا من أصحابه ليبحثوا عنه فلم يجدوه فاضطر للبحث عنه شخصياً .. أقول : لعل ذلك ، كان لإتمام الحجة على الناس ، وليعلموا أن هؤلاء مارقون عن الدِّين بشهادة رسول اللـه (ص) ، فلا يزايدون على الناس بدينهم الأجوف . ولمعرفة أن هذه الفئة المارقة الملعونة ، لم تنته بتصفية أفرادها جميعاً ، إذ أنها حالة اجتماعية مستمرة سوف تبرز بين الفينة والأخرى هنا أو هنالك ، تحت راية هذا أو ذاك ، حيث لم يخلُ عصرٌ منهم أو من أمثالهم ذوي الثفنات الغليظة ، والمظاهر الدينية والتطرف للقشور . وتكفير الناس بغير حجة من اللـه ، ولا دليل من العقل ..

والخوارج من هنا ، وأصحاب الأشعث المتخاذلون من هناك ، شكَّلوا أكبر خطر على النظـــام الإسلامي ، في عهد الإمام (ع) وهم يشكِّلون ذات الخطر على كل رسالة إصلاحية ..

وفعلاً برزت بُثور عفنة من تابعي نهج الخوارج بعدئذ في أطراف دولة الإسلام ، وشغلوا جانباً من اهتمام الإمام (ع) بما أتاح فرصة لمعاوية بتثبيت حكمه !

الأيام الأخيرة لعهد الإمام (ع) :

حين يمر شريط حياته سلام اللـه عليه أمام أعيننا تبدو نهاياتها أشد قتاماً حتى يكاد يتفطر القلب أسى . فهذا معاوية يقود رايات الجاهلية ضد رسالـــة اللـــه !. وهذا الأشعث وأهل الدنيا من قيادات الجيش الكوفي ، يميلون إلى باطل معاوية ، وتستهويهم وعوده الكاذبة أكثر من نصائح الإمام (ع) .. وهؤلاء أصحابه الكرام يَلقون مناياهم ويُصرعون بالحرب حيناً ، وبالغيلة أحياناً .. ولا يمر عليه يوم إلاّ وتتوارد عليه أنباء مؤسفة ..

فالمتطرفون يخرجون عليه ، ويزعجون جيشه ، والجيش قد تعب من الحرب ، ومعاوية يزداد قوة كل يوم ، ويبعث بسرايا خفيفة تغير على أطراف البلاد . يحيي بذلك سنن الجاهلية التي ينتمي إليها ، ويشجع القبائل العربية والقيادات الجاهلية على العودة إلى عاداتهم السابقة من سلب ونهب .. ثم يهاجم اليمن والحجاز بجيش يقوده

بسر بن أرطأة ، ويأمره بإثارة الفوضى وإرهاب الموالين للإمام (ع) .. ويجهز جيشاً لمهاجمة مصر ، بقيادة عمرو بن العاص الذي اتَّبعه طمعاً في ولاية مصر ، فيعيث فساداً في مصر ، ويقتل والي الإمام عليها (محمد بن أبي بكر) ويمثل به ويحرقه .. وحينما ندب الإمام لمصر السيف الصارم (مالك الأشتر) ، دبّر معاوية خطة لاغتياله بالسم في بعض الطريق .. وكان نبأ شهادته على الإمام عظيماً ، إذ فقد بطلاً راسخ الإيمان شديد الوطأة على أعداء اللـه .

كل ذلك ، وأهل الكوفة لايزالون مختلفين ، إذ كانوا متأخرين قروناً عديدة عن أفق الإمام (ع) ، حيث كان يستحثهم بكل ما أُوتي من بلاغة القول وحكمة الرأي وقوة الطرح ، على الجهاد في سبيل اللـه وعلى المحافظة على كرامتهم ومكاسب ثورتهم ، فلم يكن يستجيب له إلاّ طليعة القوم .

ولعل الهدف الأسمى للإمام (ع) كان ترسيخ أسس الإيمان عند هؤلاء الطليعة الذين هم شيعته المخلصون ، ليمتد الخط الرسالي حاملاً مشعل التوحيد ، عبر الأجيال .

وكان يؤلمه حقّاً تفرقُ أهل الكوفة عن حقهم ، واجتماع أهل الشام على باطلهم ، وكان يتمنى أن لَو بادَلَه معاويةُ بأصحابه على أن يدفع منهم عشرة ويأخذ واحداً من أصحاب معاوية ، وأخيراً رمى بآخر سهم من كنانته فقال :

" أَمَا إني قد سئمت من عتابكم وخطابكم ، فبيّنوا لي ما أنتم فاعلون ، فإن كنتم شاخصين معي إلى عدوي فهو ما أطلب وما أحب ، وان كنتم غير فاعلين فاكشفوا لي عن أمركم . فواللـه لئن لم تخرجوا معي بأجمعكم إلى عدوكم فتقاتلوه حتى يحكم اللـه بيننا وبينه وهو خير الحاكمين . لأدعون اللـه عليكم ولأسيرن إلى عدوكم . ولو لم يكن معي إلاّ عشرة .

واضاف قائلاً :

" أجلاف أهل الشام أصبرُ على نُصرة الضلال ، وأشدُّ إجماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقكم . ما بالكم وما دواؤكم ؟. إن القوم أمثالكم لايُنشرون إن قتلوا إلى يوم القيامة " (٣٨).

فلما رأى أهل الكوفة منه العزم على أن يزحف بمن بقي معه من أصحابه المخلصين استجابوا له ، وتداعوا للجهاد وخرج المقاتلون إلى النخيلة حيث كان يعسكر فيه جيش الكوفة . ولبث الإمام (ع) : هناك ، ووجَّه واحداً من قادة جيشه (زياد بن حفصة) باتجاه الشام ، يقود طلائع الجيش ، بينما انتظر انسلاخ شهر رمضان

ليزحف ببقية الجيش إلى الشام ، لولا أن القدر كان في انتظاره في ليلة التاسع عشر من شهر اللـه المبارك ..

تهدمت أركان الهدى :

ليلة التاسع عشر من شهر رمضان المبارك ، تُعتبر من الليالي التي يُرجى فيها أن تكون ليلة القدر . وكان حديث الناس في تلك الليلة في كل مكان حول الحرب ، بعد أن بث الإمام (ع) فيهم روح الجهاد ، ودبّ إليهم النشاط والعزيمة .

وفي طرف مسجد الكوفة كان يصلي جماعة من المصريين ، كعادتهم في كل ليلة ، قريباً منهم عند السرة كان يصلي جماعة باجتهاد . وهناك في بيت متواضع على طرف تستضيف الإمام (ع) أبنته فتحمل إليه عند الإفطار ، رغيفاً من الخبز ولبناً وشيئاً من الملح ، فيأمرها برفع اللبن . ولما تناول لقمات نهض لصلواته ، وبين الفينة والأخرى كان يتطلع إلى السماء فيقول : هي هي الليلة التي وُعدت بها . لا كَذبت ولا كُذِّبت .. ثم يخرج إلى المسجد ، ويدخله من ذات الباب الذي اجتمع خلفه أولئك الرجال .

يقول الراوي : خرج عليهم علي بن أبي طالب (ع) عند الفجر ، فأقبل ينادي .. الصلاة الصلاة ، وبعدها رأيت بريق السيف ، وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله لا لك يا علي ، ثم رأيت بريق سيف آخر ، وسمعت عليّاً يقول : لا يفوتنَّكُم الرجل . وكان الأشعث قال لابن ملجم النجاة لحاجتك قبل أن يفضحك الفجر (٣٩).

فمن هو الذي اشترك في المؤامرة ضد حياة قائد المسلمين ؟

إنهم ثلاثة اجتمعوا في الحج وقرر كل واحد منهم اغتيال واحد من الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والإمام (ع) فلم ينجح صاحب عمرو بن العاص ، إذ كان قد استناب عنه آخر ، للصلاة فقُتل ، بينما وقع سيف صاحب معاوية على فخذه وجرحه جرحاً بسيطاً ..

اما ابن ملجم الذي كان قد اشترى سيفه بألف وسمَّمه بألف فقد التقى - فيما يبدو - بالمعارضة التي تنامت في الكوفة ، وكان يقودها ابن الأشعث الذي بدأ يتباكى على مصرع الخوارج ، وكان قد دخل الإمـــام (ع) قبل فترة فاغلظ عليه لمؤامرته المستمرة ضد الإسلام ، فتوعده وهدده بالفتك ، فقال له الإمـــام :

" أَبِالموت تخوّفني وتهدِّدني ؟. فوالله ما أُبالي وقعتُ على الموت أو وقع الموتُ عَلَيَّ " (٤٠).

وهكذا تعاون معه في جريمته سبيب بن بجران ، ووردان بن مجالد ، ولعل رجالاً آخرين من جماعة ابن الأشعث كانوا مساهمين معهم .

ومن خلال الأشعث التقت مصلحة الخوارج (الذين كانوا من أشد المعارضين لمعاوية) بمصالح معاوية الذي كان يخشى هجوماً صاعقاً لجند الإسلام ضده .وكان لا يني من توزيع الوعود على الطامعين في الكوفة ، للفتك بالإمام (ع) . ومن هنا خاطب أبو الأسود الدؤلي معاوية بعد تنفيذ الجريمة قائلاً :

أَلاَ أَبلغْ معاوية ابنَ حربٍ * فلا قرت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا * بخير الناس طرّاً أَجمعينا

قتلتم خير من ركب المطايا * وذلَّلها ومَن ركب السفينا

ومَن لبس النعال ومن حذاها * ومن قرأ المثاني والمئينا (٤١)

وبعد تنفيذ الجريمة ، حُمل الإمام (ع) إلى البيت ، وأُحضر عنده ابن ملجم فقال الإمام :

" النفس بالنفس ، إن أنا متُّ فاقتلوه كما قتلني ، وإن سلمتُ رأيت فيه رأيي .

وأضاف : يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين . أَلاَ لا يَقتلنَّ إلاّ قاتلي " .

ودخل على الإمام (ع) أكبر أطباء الكوفة واسمه : أثير بن عمر بن هاني ، فلما فحصه مليّاً قال : يا أمير المؤمنين اعهد عهدَك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربتُه إلى أم رأسك (٤٢).

ويقول الأصبغ بن نباتة : دخلتُ على أمير المؤمنين (ع) ، فإذا هو مستند معصوب الرأس بعمامة صفراء قد نزف دمُه واصفرَّ وجهه . فما أدري وجهه أشد صفرة أم العمامة ، فاكببتُ عليه فقبلته وبكيت . فقال لي : لا تبكِ يا أصبغ فإنها - والله - الجنة .

فقلت له : جَعلتُ فداك ، إني أعلم - والله - أنك تصير إلى الجنة ، وإنما أبكي لفقداني إياك يا أمير المؤمنين (٤٣).

وبكت عنده أم كلثوم بعد أن نعى إليها نفسه ، فقال لها :

" لا تؤذيني يـــا أم كلثوم ، فإنـــك لو ترين مـــا أرى ، إن الملائكة مـــن السماوات السبـــع بعضهم خلف بعـض ، والنبيون يقولون : انطلق يا علي فما أمامك خير لك مما أنت فيه " (٤٤).

وبقي الإمام (ع) ثلاثاً تشتد حالته ، حتى كان ليلة الواحد والعشرين من شهر رمضان ، في الثلث الأول منها ، وعهد عهده إلى الإمام الحسن وأوصاه وأخاه الإمام الحسين عليهما السلام ، بآخر وصاياه ، ثم ودع أهل بيته ، واستقبل ملائكة ربه بالسلام وفارقت روحه الزكية الحياة ، وصرخت بناته ونساؤه ، وارتفعت الصيحة في بيته ، فعلم أهل الكوفة أن أمير المؤمنين قد قُبض ، فأقبل الرجال والنساء أفواجاً ، وصاحوا صيحة عظيمة ، وارتجَّت الكوفة بأهلها ! وكان ذلك اليوم كيوم مات فيه رسول اللـه (ص) .

ثم غسله الإمام الحسن والإمام الحسين معاً سلام اللـه عليهم أجمعين ، بينما كان محمد بن الحنفية يصب الماء . وحُنِّط ببقية حنوط رسول اللـه ، ووضعوه على سريره ، وصلَّى عليه الإمام الحسن (ع) ، وحُمل في جوف الليل من تلك الليلة إلى ظهر الكوفة فدفن بالنوبة عند قائم الغرَّيين حيث مرقده الشريف الآن .

وكانت الحكمة في كتمان موضع قبره الذي ظل سريّاً عن العامة حتى عهد الإمام الرضا (ع) ، اتِّقاء شرِّ الخوارج وبني أمية .

ثم قتل ابن ملجم وأحرق بالنار .

وطويت صفحة ناصعة من حياة الإمام (ع) بشهادته ، لتنشر على مدى الدهر صفحات مجده وعزه ، وفضائله ، وتابعيه على الهدى والإستقامة . فسلام اللـه عليه حين ولد في الكعبة ، وحين وقع صريعاً في محراب الكوفة ، وحين مضى شهيداً وشاهداً على الظالمين ، وحين أضحى راية العدالة وعلم الهدى ، ومنار التقوى . وسلام اللـه عليه حين يبعث حيّاً ، ليجعله اللـه ميزاناً يفصل به بين عباده ، وقسيماً للجنة والنار .. وسلام على الصدِّيقين الذين اتَّبعوا خطاه ، وعلى شيعته الذين تحملوا في ولائه ما تعجز عنه الجبال الراسيات .

(١) المصدر : ج ٢ ، ص ٤ ، عن الطبري وابن الأثير .

(٢) المصدر : ج ٢ ، ص ١١ .

(٣) المصدر : (ص ٥٤) .

(٤) المصدر : (ص ٣٨) .

(٥) المصدر : (ص ٣٩) عن أبن أبي الحديد .

(٦) المصدر : (ص ٢٥) .

(٧) المصدر : (ص ٢٢) .

(٨) المصدر : (ص ٤٢) .

(٩) المصدر : (ص ٢٤) .

(١٠) المصدر : (ص ٣١) .

(١١) المصدر : (ص ٣٥) .

(١٢) المصدر : (ص ٣٧) .

(١٣) المصدر : (ص ٥٥) .

(١٤) المصدر : (ص ٩١) .

(١٥) المصدر : (ص ٩٣) .

(١٦) العكم بالكسر : العدل والعكمان : العدلان .

(١٧) المصدر : (ص ٧٤) .

(١٨) المصدر : (ص ٨٤) .

(١٩) المصدر : (ص ٧٩) .

(٢٠) المصدر : (ص ٩٠) .

(٢١) المصدر : (ص ٨٦) نقلا عن المسعودي .

(٢٢) المصدر .

(٢٣) المصدر : (ص ٨٦) .

(٢٤) المصدر : (ص ٨٨) .

(٢٥) المصدر : (ص ١٥٣) .

(٢٦) المصدر : (ص ١٥٧) .

(٢٧) المصدر : (ص ١٥٩) .

(٢٨) المصدر : (ص ١٦٨) .

(٢٩) المصدر : (ص ١٧٠) .

(٣٠) المصدر .

(٣١) المصدر : (ص ١٧٣) .

(٣٢) المصدر : (ص ١٩٢ - ١٩٣) .

(٣٣) المصدر : (ص ١٩٤) .

(٣٤) المصدر : (ص ١٩٥) .

(٣٥) سيرة الأئمة الأثنى عشر : (ص ٤٩٠) .

(٣٦) المصدر : (ص ٤٩١) .

(٣٧) المصدر : (ص ٤٩٢) .

(٣٨) المصدر : (ص ٤٩٩) .

(٣٩) المصدر : (ص ٥٠٥) .

(٤٠) المصدر : (ص ٥٠١) .

(٤١) في المصدر (والمبينا) والظاهر ما ذكرناه انظر : (٥٠٢) .

(٤٢) في رحاب أئمة أهل البيت : (ص ٢٥٥ ، ج ٢) .

(٤٣) المصدر .

(٤٤) المصدر .

الفصل الخامس: فضائلــه ومناقبــه

وكأشعَّة الشمس ملأت فضائل الإمام (ع) الآفاق ، وأعطتنا ضياءً ودفئاً روحيّاً . ولقد تنافس كبار علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم في سرد فضائله ، حتى ليكاد السذَّج من القراء يقولون : فعلي - اذاً - أفضل الناس جميعاً جاهلين بأنه آيةُ صدقٍ لرسالة محمد (ص) ومرآة صافية تتجلى فيها صورة مربيه وسيده محمد (ص) حتى قال سلام اللــه عليه :

" أنا عبد من عبيد محمد (ص) " .

بلى ، إن إصرار أصحاب الرسول (ص) وأولي البصائر من التابعين والصدِّيقين من المسلمين على نشـــر فضائل الإمام (ع) كان تحدياً لخط الضلال الذي تسلط على المسلمين ، واجتهد لمحو معالم الحق .. وهكذا خرجت فضائله عن إطار الإحصاء .

بيد أن علينا أَلاَّ ننظر إلى فضائله بصورة منفصلة عن بعضها .. أرأيت كيف لو مزقت زهرة وبدأت تنظر إلى كل ورقة فيها وحدها ؟.

إنَّنا حين نتحدث عن الزهد يخيَّل إلينا انطواء المرتاضين ورهبنة الهاربين عن الحياة ..

وإذا تحدثنا عن العلم قفزت إلى أذهاننا صورة أولئك المنكبين على أوراقهم في المكتبات ، أو على أدواتهم في المختبرات ، دون ان يتحملوا المسؤولية أو يخوضوا صراعاً .

وإذا ذكرنا الجود تذكرنا الملوك حين يوزعون الهدايا على الملأ من قومهم ، ليستدرجوهم إلى مؤازرتهم وليضمنوا ولاءهم .

وإذا بيَّنا الشجاعة ، ارتسمت أمامنا صورة أبطال الحروب ، الذين دأبهم القتل ومهمتهم إراقة الدماء ، وهكذا ..

بيد أن عليّاً (ع) غير كل أولئك . لأنَّ صفاته تجليات لروحه الإيمانية ، كالنور الواحد ينعكس على الأشياء فيتجلى عليها ألواناً مختلفة ، وهكذا نور التوحيد في ضمير الإمام (ع) ينبعث في واقعه صفةً مُثلى وآيةً عُظمى للحق .

فحين يتجلى الرب سبحانه للقلب السليم فيثبّته بالقول الثابت ، ويُفيض عليه من نور عزه ، يصبح صاحبـــه الجواد العدل ، والشجاع الحنـــون ، والعالم المسـؤول ، والزاهـــد المتصدي ، والبكّاء في ظـلام الليل ، والقتّال حين يرتفع النهار ..

ويقول قائلهـم :

جمعــت فــي صفـــاتك الأضـدادُ * ولهــذا عـــــزت لـــــك الأنـــدادُ

ونقول إنها الصفات الحسنى يتبع بعضها بعضاً .. إنها الحب والصدق والأمانة ، تجمعها معرفة اللـه ، وتنساب منها سائر فضائل الخير ..

لقد عاش لله سبحانه ، لأنه عرف اللـه وتنمَّر في ذات اللـه ، لأنه أوتي اليقين بعظمة ربِّه . أو لم يقل (ع) عن المؤمنين وهو أميرهم :

" عَظُمَ الخالقُ في أنفسهم ، فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعينهم " .

واستهان بالموت لأنه أحب لقاء ربه ..

وعدل في الرعية لأنه تجاوز حواجز المادة إلى حقائق الجوهر ، فأسقط كل الميزات الظاهرية ، وتحدَّى الضغط الذي يدعو إليها .

وزهد في الدنيا ، لأنه أبصر حقيقتها فصامت نفسه عنها قبـــل أن تصوم جوارحه ، وطلَّقها ثلاثاً وقال لهـا :

" يا دنيا يا دنيا !! إليك عنّي ، قد طلَّقتك ثلاثاً لا رجعة فيها " (١).

وأنهكته العبادة لأنه يلتقي هناك بحبيبه الكريم . فلم يزل ذاكراً ربه ، يعيش قلبه بمناجاته . وهكذا كانت سائر فضائله روافد من نبع الإيمان والمعرفة واليقين .

وها نحن نروي لك شيئاً قليلاً منها لعلنا نزداد معرفة بإمامنا سلام اللـه عليه ، ونزداد قرباً إلى ربنا بمعرفته .

فقد روى أبو الدرداء في جمع من أصحاب النبي قصته مع الإمام علي (ع) ، وكيف شاهد جانباً من عبادته الليلية :

عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير قال : كنا جلوساً في مجلس ، في مسجد رسول اللـه (ص) فتذاكرنا أعمال اهل بدر وبيعة الرضوان ، فقال أبو الدرداء : يا قوم أَلاَ أُخبركم بأقل القوم مالاً ، وأكثرهم ورعاً ، وأشدهم اجتهاداً في العبادة ؟. قالوا : مَن ؟ قال : أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) . قال : فواللـه إن كان في جماعة أهل المجلس إلاَّ مُعرض عنه بوجهه . ثم انتدَب له رجل من الأنصار فقال له : يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها ، فقال أبو الدرداء : يا

قوم إني قائل ما رأيت وليقل كل قوم منكم ما رأوا شهدت علي بن أبي طالب (ع) بشويحطات النجار ، وقد اعتزل عن مواليه ، واختفى ممن يليه ، واستتر بمغيلات النخل ، فافتقدتُه وبَعُدَ عَلَيَّ مكانُه ، فقلت : لحق بمنزله . فـإذا أنـا بصوت حزين ونغمة شجيَ وهو يقول :

" إلهي كم من موبقة حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك ، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك ! إلهي إن طال في عصيانك عمري ، وعظم في الصحف ذنبي ، فما أنا مؤمل غير غفرانك ، ولا أنا بِرَاجٍ غيـر رضوانـك " .

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر ، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه ، فاستترت له واخملت الحركة ، فركع ركعات في جوف الليل الغابر ، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى ؛ فكان مما ناجى اللـه به أن قال :

" إلهي أُفكِر في عفوك فتهون عَلَيَّ خطيئتي ، ثم أذكر العظيم من أخذِك فتعظم عَلَيَّ بليَّتي " .

ثم قال : " آه ، إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها ، فتقول : خذوه !. فيا له من مأخوذ لا تُنجيه عشيرته ، ولا تَنفعه قبيلته ؛ ولا يرحمه الملأ إذا أُذن فيه بالنداء " .

ثم قال : " آه من نار تنضج الأكباد والكلى ، آه من نار نزاعة للشوى ، آه من غمرة من ملهبات لظى ! ".

قال : ثم أنعم في البكاء ، فلم أسمع له حسّاً ولا حركة ، فقلت ، غلب عليه النوم لطول السهر ، أُوقظه لصلاة الفجر . قال أبو الدرداء : فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة ، فحرَّكته فلم يتحرك وزويته فلم ينزوِ ، فقلـت : " إنا لله وإنا إليه راجعون " مات اللـه علي بن أبي طالب (ع) قال : فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم ، فقالت فاطمة (ع) : يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصته ؟. فأخبرتها الخبر ، فقالت :

" هي واللـه يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية اللـه " .

ثـم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ، ونظر إليَّ وأنا أبكي ، فقال : مما بكاؤك يا أبا الـدرداء ؟. فقلـت : مما أراه تُنزله بنفسك . فقال :

" يا أبا الدرداء فكيف ولو رأتني ودُعِيَ بي إلى الحساب ، وأيقن أهل الجرائم بالعذاب ، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ ، فوقفت بين يدي الملك الجبار ، قد أسلمني

الأحبّاء ، ورحمني أهل الدنيا ، لَكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية " .

فقال أبو الدرداء : فواللـه ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول اللـه (ص) (٢).

ولأن إمامنا (ع) كان أشد حبّاً لربّه وأكثر أنساً به وشوقاً إليه ، كان يحب لقاء ربه ، ولا يبالي بالموت . فقد جاء في حديث أنه كان يطوف بين الصفين بصفّين في غلالة،(٣) فقال الحسن (ع) : ما هذا زي الحرب ، فقال : يا بني إن أباك لا يبالي وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

وحينما علاه أشقى الآخرين بالسيف هتف عالياً : فُزْتُ وربِّ الكعبة .

وقد كان (ع) يتمنى الشهادة ، ويكرر هذه الكلمة باستمرار .

ما ينتظر أشقاها أن يخضبها من فوقه بدم !. لقد كان يعتبر الشهادة أسمى الطرق إلى اللـه ولقائه . فإذا وفق اللـه لها عبداً فتلك نعمة كبرى لابدّ أن يشكره عليها . يقول الإمام (ع) :

لما أنزل اللـه سبحانه قوله :

{ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } (العنكبوت/١-٢) .

علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول اللـه (ص) بين أظهرنا ، فقلت : يا رسول اللـه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللـه تعالى بها ؟ . فقال :

" يا علي ، إن أمتي سيفتنون من بعدي " .

فقلت : يا رسول اللـه أوليس قد قلت لي يوم أحد حين استشهد مَن استشهد من المسلمين واخرت عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي : " أبشر فان الشهادة من ورائك ؟ " .

فقال لي : " إن ذلك لكذلك ، فكيف صبرك إذاً ؟ ".

فقلت : " يا رسول اللـه ليس هذا من مواطن الصبر ، ولكن من مواطن البشرى والشكر " (٤).

حُبُّ اللـه تعالى فـوق كل وشيجـة :

وكان حبه الشديد لربه سبحانه يجعله فوق كل وشيجة مادية ، وكل ضغط اجتماعي ، وكل مصلحة دنيوية زائلة .

فقد حدثنا (ع) بنفسه عن أسباب نصر اللـه للمسلمين . وجعل أعظمها التعالي عن علاقاتهم النسبية والتمسك بقيم الحق ، فقال :

" فلقد كنا مع رسول اللـه (ص) وإنّ القتل ليدور على الآباء والأبناء والأخوان والقرابات ، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلاّ إيماناً ومضيّاً على الحق " (٥).

ويروي التاريخ أن الإمام علي (ع) رأى يوم بدر عقيلاً أخاه وكان في معسكر الأعداء يومئذ ، رآه مقيداً فصدَّ عنه ، وصاح به عقيل : يا علي ، أما واللـه لقد رأيت مكاني ، ولكن عمداً تصدُّ عني .

فأتـى علي (ع) إلى النبي (ص) وقال :

" يا رسول اللـه هل لك في أبي يزيد ، مشدودة يده في عنقه بنسعه (٦) فقال انطلق بنا إليه " (٧).

وهكذا كان موقفه من أخته أم هاني يوم فتح مكة حيث أوت رجالاً من قريش كما يروي التاريخ فلم يجرهم حتى أجارهم النبي (ص) (٨).

ومن هنا كان الإمام (ع) يعيش أبداً فوق الضغوط وكان الناس يعرفون منه ذلك ، ولذلك تعاونت ضده أصحاب المصالح ، وقوى الضغط الإجتماعية ، كما تخبرنا عن ذلك زوجته سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع) :

" وما الذي نقموا من أبي الحسن ، نقموا منه واللـه نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمُّره في ذات اللـه " (٩).

لقد عرفوا أنه لايبالي ، ولا يداهن فيما يرتبط بربه . وهكذا شهدت حوادث التاريخ . فحينما مد إليه عبد الرحمن ليبايعه علـــى كتاب اللـه وسنّة رسوله وسيرة الشيخين رفض الإستجابة إلاّ لكتاب اللـه وسنّة رسوله ، ولم يبال أن الخلافة بكل ما فيها من عظمة وجلال تزوى عنه .

بل إن نظراته إلى الحكم كانت أبداً من خلال ما يمكن أن ينفع دينه . فهو الذي قال مرة لابن عباس وقد استعجله لاستقبال الوفود وكان مشغولاً باصلاح نعله ، قال له : يابن عباس ، كم تسوى هذه النعل عندكم ؟ قال : درهماً أو بعض درهمٍ .

قال : " لأمْرَتُكم هذه أزهدُ عندي منها ، إلاّ أن أُقيم حقّاً أو أَدفع باطلاً " .

أولم يرفض إبقاء معاوية على إمارة الشام مدة من الزمن يستقر فيها الأمر له ثم يعزله كما أشار عليه البعض ، لانه كان يرفض الغدر ؟.

وقد قال مرة :

" وما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس " (١٠).

ويروي التاريخ أن كل الملتحقين بمعاوية ممن كان مع الإمام علي (ع) هربوا من عدالته ، واستراحوا إلى محاباة معاوية ومداراته . وكذلك فقل والذين أثروا على عهد الخليفة الثالث ومثلهم ثراء فاحشاً على حساب المحرومين ، وخشوا من محاسبة الإمام علي لهم . الذين كانت بأيديهم ثروات المسلمين ، مـن بيت المال ، وأرادوا الاستئثار بها . وكذلك الذين كانوا يتصورون المجتمع الإسلامي كالجاهلية يأكل القويُّ العزيزُ فيه الضعيفَ الذليلَ ، ولم يُعجبهم شعار الإمام (ع) :

" الذليلُ عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقويُّ عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه " (١١).

وكذلك هرب من عدله الذين كانوا يرتكبون جرائم يستحقون عليها الحد . والذين كانوا يبحثون عن جو التسامح في دين اللـه ، يسمح لهم ارتكاب بعض الجرائم كإقامة الحفلات الماجنة ومعاقرة الخمور .

كل أولئك كانوا يتسللون إلى معاوية ويشفق عليهم الإمام (ع) ، لأنهم يهربون من النور إلى الظلام ، ومن العدالة الشاملة إلى مجتمع الظلم الزائل .

ولكنه لم يغير سياسته من أجل استمالتهم . والتاريخ يحفل بمئات الحوادث التي تروي لنا قصة ذلك الركن الشديد ، الذي تتراجع عنه عواصف الضغط الإجتماعية ، قصة ذلك الصلد الأصم الذي تتكسر عنده كل أمواج الإغراء والإرهاب .. فليجتمعوا حول معاوية ، ثم يزيد ثم من يأتي من سلاطين بني أمية ، وليرفعوا عقيرتهم ألف شهر ، بسب عليٍّ وذريته عليهم السلام ، ويتفاخرون بقتل أولاده وشيعته .. وليفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا .. فالحق أغلى .. واللـه أكبر ، وأمير المؤمنين (ع) يصبر محتسباً ثواب ربّه عزَّ وجلَّ .

ولقد قال مرة : " كنت أحسب الأمراء يظلمون الناس ، فإذا الناس يظلمون الأمراء " (١٢).

أجل ، إن انعدام الوعي عند الناس وكثرة القوى المصلحية كانت وراء ظلمهم لأمير المؤمنين (ع) .

فقد كان يريد إقامة مجتمع القانون ، والناس يرغبون في الفوضى والمحاباة ، وأن ينفَّذ القانونُ أبداً على غيرهم . أما هم فالأفضل أن تمشي لهم الوساطات .

لقد أخذ الإمام علي (ع) رجلاً من بني أسد في حدٍ ، فاجتمع قومه ليكلّموا فيه ، وطلبوا إلى الحسن (ع) أن يصحبهم ، فقال : ائتوه فهو أعلى بكم عيناً ، فدخلوا عليه وسألوه ، فقال : لا تسألوني شيئاً أملكه إلاّ أُعطيتم ، فخرجوا يرون أنهم قد نجحوا ؛ فسألهم الحسن (ع) فقالوا : أتينا خير مأتِيً ، وحكوا له قوله ، فقال : ما كنتم فاعلين إذا جلد صاحبكم فافعلوه .. فأخرجه علي (ع) فحدَّه ، ثم قال: " هذا واللـه لستُ أملكه " (١٣).

وقد بيَّن فلسفة ذلك في قصة أخرى حيث بلغ معاوية أن شاعراً من أصحاب الإمام (ع) كان اسمه النجاشي قد هجاه . ولعل معاوية كان يعرف أنه يشرب الخمر ، فدسَّ قوماً شهدوا عليه عند الإمام أنه شرب الخمر ، فأخذه وحدّه .

فغضب جماعة على الإمام (ع) في ذلك - وكان بينهم طارق بن عبد اللـه الفهدي - فقال : يا أمير المؤمنين مالنا نرى أن أهل المعصية والطاعة وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العقل ومعادن الفضل سِيَّانِ في الجــزاء ، حتى ما كان من صنيعك بأخي الحارث - يعني النجاشي - فأوغرت صدورنا ، وشتت أمورنــا ، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى أن سبيل من ركبها النار (أي اتِّباع معاوية) .

فقال علي (ع) : { وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ } (البقرة/٤٥) .

يا أخا بني فهد !. هل هو إلاّ رجل من المسلمين انتهك حُرمة من حُرم اللـه ، فأقمنا عليه حدها زكاة له وتطهيراً ؟.

يا أخا ابن فهد ، إنه من أتى حدّاً فأليم(١٤) كان كفارته .

يا أخا ابن فهد ، إن اللـه عزَّ وجلَّ يقول في كتابه العظيم :

{ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى اَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }

(المائدة/٨) (١٥).

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى العدل والمساواة مستوحاة من لب الوحي وروح الرسالة ، وقد انعكست على مواقفه ، وفي تأديبه لِوُلاته ، فهنا يوصي عامله على مصر مالك الأشتر فيقول له :

" أنصف اللـه ، وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك . فإنك إلاّ تفعل تَظلم ، ومن ظلم عباد اللـه كان اللـه خصمه دون عباده ، ومن خاصمه اللـه أرخص حُجته ، وكان لله حرباً حتى يفزع ويتوب . وليس بشيء

أدعى إلى تغيير نعمة اللـه ، وتعجيل نقمته من إقامةٍ على ظلم ، فإن اللـه سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد " .

ثم يحذره من محاباة الخاصة (وهم الأشراف وأولوا الوجاهات والوساطات) فيقول : " وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمّها في العدل ، وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة ، وإن سخط الخاصة يُغتفر مع رضى العامة " (١٦).

مكرمات الإمام (ع) على لسان النبيِّ (ص) :

عشرات المجلدات لاتكفي وصف حياة الإمام (ع) الذي تجلَّى الوحي في حياته ، وكان آية صدقٍ لرسالات اللـه ، وشاهد حقٍّ لنبوَّة خاتم المرسلين محمد (ص) .

وإذا كان هذا الكتاب لايسع من فيض مكرماته سوى قطرات ، فإن تلك القطرات تكفينا ، لأنها بالنسبة إلينا رافد عظيم .

ولعل البعض تصيبه الدهشة إذا سمع فضائل الإمام (ع) على لسان النبي (ص) لأنه لم يستوعب حكمة الخلق ، ولا يفكر في إطار البصائر القرآنية .

أما إذا نظر إلى السموات والأرض وما فيها بصفتها مخلوقات لله ، وعلم أن اللـه سخرها للإنسان ، وفضَّل البشر على كثير مما خلق تفضيلاً ، وأنه إنما أكرم أبناء آدم لعبادتهم له ، وأن أكرمهم عنده أتقاهم ، استوعب آنئذ ما يذكر من كرامات أولياء اللـه .

أما إذا نظر إلى الانسان نظرة مادية ، فإنه لايمكنه أن يصدق بشيء ، حتى بالوحي الذي يعتبر عنوان كرامة اللـه للانسان ، ورمز تفضيله على سائر خلقه ، ومفتاح تسخير الأشياء له .

وها نحن نستعرض معاً بعض مكرمات الإمام (ع) على لسان النبيِّ (ص) ونتذكر أن الصعاب التي مرَّ بها في حياته كانت معراجاً إلى ربه سبحانه ، ووسيلةً وزلفى إلى رضوانه .

(١) قصار الحكم للإمام / نهج البلاغة .

(٢) موسوعة بحار الأنوار : (ج ٤١ ، ص ١٣) .

(٣) الغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع .

(٤) المصدر : (ص ٧) .

(٥) نهج البلاغة الخطبة (١٢٢) .

(٦) وهي عريض طويل يشد به الرحال .

(٧) المصدر : (ج ٤١ ، ص ١٠) .

(٨) المصدر .

(٩) سيرة الأئمة : (ج ١ ، ص ١٢٤) .

(١٠) الخطبة (٢٠٠) من نهج البلاغة .

(١١) نهج البلاغة الخطبة (٣٧) .

(١٢) المصدر .

(١٣) المصدر .

(١٤) أي ارتكب ما يوجب عليه الحد فلامه الناس أو آلمه إقامة الحد عليه .

(١٥) المصدر : (ج ٤١ ، ص ١٠) .

(١٦) نهج البلاغة (المعجم المفهرس) : ص (٩٨) .

الفصل السادس : في فضائله (ع) على لسان النبي (ص)

روى سلمة بن قيس قال : قال رسول اللـه (ص) :

" عليٌّ في السماء السابعة كالشمس بالنهار في الأرض ، وفي السماء الدنيا كالقمر بالليل في الأرض . أعطى اللـه عليّاً من الفضل جزاءً لو قُسِّم على أهل الأرض لَوَسعهم . وأعطاه اللـه من الفهم لو قُسِّم على أهل الأرض لَوَسعهم . شبهت لينه بلين لوط ، وخَلقه بِخُلق يحيى ، وزُهده بزهد أيوب ، وسخاءه بسخاء إبراهيم ، وبهجته ببهجـــة سليمان بن داود ، وقُوَّته بقوة داود (و) له اسم مكتوب على كل حجاب في الجنـــة ، بَشرني به ربّي وكانت له البشارة عندي . عليٌّ محمودٌ عند الحق ، مزكًّى عند الملائكة ، وخاصتـــي وخالصتي وظاهرتي ومصباحي وجُنَّتي ورفيقي ، آنسني به ربي ، فسألت ربي أن لا يقبضه قبلي ، وسألته أن يقبضه شهيداً (١) أُدخلت الجنة فرأيتُ حُورَ عليٍّ أكثر من ورق الشجر ، وقُصور عليٍّ كعدد البشر . عليٌّ منّي وأنا من عليٍّ ، مَن تولَّى عليّاً فقد تولاّني ، حُبُّ عليٍّ نعمةٌ ، واتّباعُه فضيلة . دان به الملائكة وحفت به الجن الصالحون . لم يمش على الأرض ماشٍ بعدي إلاّ كان هو أكرم منه عزّاً وفخراً ومنهاجاً . لم يك فظّاً عجولاً ، ولا مسترسلاً لفساد ولا متعنّداً ، حملته الأرضُ فأكْرمته . لم يخرج من بطن أنثى بعدي أحدٌ كان أكرم خروجاً منه ، ولم ينزل منزلاً إلاّ كان ميموناً . أنزل اللـه عليه الحكمة ، وردّاه(٢) بالفهم . تُجالِسه الملائكة ولا يراها ، ولو أُوحِيَ إلى أحد بعدي لأُوحِيَ إليه ، فزين اللـه به المحافل وأكرم به العساكر ، وأخصب به البلاد ، وأعزَّ به الأجناد . مَثَلُه كَمَثل بيت اللـه الحرام ، يُزار ولا يَزور ، ومَثَلُه كمَثل القمر إذا طلع أضاء الظلمة ، ومَثَلُه كمَثل الشمس إذا طلعت أنارت (الدنيا) . وصفه اللـه في كتابه ومدحه بآياته ، ووصف فيه آثاره ، وأجرى منازله ، فهو الكريم حيّاً والشهيد ميتاً "(٣) .

وروى أبو ذر الغفاري قال : بينما كنَّا ذات يوم من الأيام بين يدي رسول اللـه (ص) ، إذ قام وركع وسجد شكراً لله تعالى ، ثم قال :

" يـــا جنـــدب ، مَن أراد أن ينظر إلـى آدم في علمه ، وإلى نوح في فهمه ، وإلى إبراهيم في خلّتـــه ، وإلى موسى في مناجاته ، وإلى عيسى في سياحته(٤) وإلى

أيوب في صبره وبلائه(٥) ، فلينظر إلى هذا الرجل المقابل (٦) الذي هو كالشمس والقمر الساري والكوكب الدُّري . أشجع الناس قلباً . وأسخى الناس كفّاً (٧)، فعلى مبغضه لعنة اللـه والملائكة والناس أجمعين " .

قال : فالتفت الناس ينظرون مَن هذا المقبل ، فإذا هو عليُّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام (٨).

وجاء في كتابَيِ الخطيب الخوارزمي وأبي عبد اللـه النطنزي ، قال أبو عبيد صاحب سليمان بن عبد الملك : بلغ عمر بن عبد العزيز أن قوماً تنقّصوا بعلي بن أبي طالب (ع) ، فصعد المنبر وقال : حدثني غزال بن مالك الغفاري عن أم سلمة ، قال : بينا رسول اللـه (ص) عندي ، إذ أتاه جبرائيل فناداه ، فتبسم رسول اللـه (ص) ضاحكاً ، فلما سُرِّي عنه قلت : ما أضحكك ؟ قال :

" أخبرني جبرائيل أنه مر بعلي وهو يرعى ذوداً له(٩) وهو نائم قد أُبدِيَ بعضُ جسده . قال : فرددت عليه ثَوْبَيهِ فوجدت برد ايمانه وقد وصل (١٠) إلى قلبي " .

وفي رواية الأصبغ أن عليّاً (ع) مضى من المدينة وحده ، فأتى عليه سبعة أيام فَزُئيَ النبيُّ (ص) يبكي ويقول : " اللـهم ردّ إليَّ عليّاً قرة عيني ، وقوة ركني ، وابن عمي ، ومفرج الكرب عن وجهي " .

ثم ضمن الجنة لمن أتى بخبر عليّ (ع) . فركب الناس في كل طريق ، فوجده الفضل بن العباس ، فبشر النبيَّ (ص) بقدومه ، فاستقبله فمازال يفتش عن يمين عليِّ وعن يساره وعن رأسه وعن بدنه(١١) فقلت : تفتش عليّاً كأنه كان في الحرب ؟ فأخبرني عن جبرائيل (ع) أن أقواماً من المشركين يقصدونك من الشام فأَخرجْ إليهم عليّاً وحده ، فخرج معه جبرائيل (ع) في ألف ملك وميكائيل (ع) في الف ملك ، ورأيت ملك الموت يقاتل دون علي .

وجاء في أربعين الخطيب ، وشرح ابن الفياض ، وأخبار أبي رافع ، في خبر طويل عن حذيفة ابن اليمان أنه دخل أمير المؤمنين (ع) على رسول اللـه (ص) وهو مريض ، فإذا رأسه في حجر رجل أحسن الخلق والنبيّ (ص) نائم ، فقال الرجل : أُدن إلى ابن عمك ، فأنت أحق به مني ، فوضع رأسه في حجره ، فلما استيقظ النبيُّ (ص) سأله عن الرجل ، قال علي (ع) : كان كذا وكذا . فقال النبيُّ : (ص) : ذاك جبرائيل (ع) كان يحدثني حتى خف عني وجعي . وفي خبر أن النبيّ (ص) كان يملي عليه جبرائيل ، فقام (١٢) (ص) وأمره بكتابة الوحي .

وروى محمد بن عمرو بإسناده عن جابر بن عبد اللـه أنه قال : قال رسول اللـه (صلىاللـه عليه وآله):

" ما عصاني قوم من المشركين إلاّ رميتهم بسهم اللـه " .

قيل : وما سهم اللـه يا رسول اللـه ؟ قال :

" علي بن أبي طالب (ع) ما بعثته في سريّة ولا أبرزته لمبارزة إلاّ رأيت جبرائيل (ع) عن يمينه وميكائيل عن يساره وملك الموت (ع) أمامه ، وسحابة تظله حتى يعطيه اللـه خير النصر والظفر " .

وروي مشاهدته لجبرائيل (ع) على صورة دحية الكلبي حين سماه بتلك الأسامي ، وحين وضع رأس رسول اللـه (ص) في حجره ، وقال : " أنت أحق به مني " وحين كان يملي الوحي ونعس النبيُّ (ص) ، وحين اشترى الناقة من الأعرابي بمائة درهم وباعها من آخر بمائة وستين ، وحين غسل النبيّ (ص) ، وغير ذلك ، وروى نحواً منه أحمد في الفضائل .

وقد خدمـــه جبرائيل (ع) في عدة مواضع . روى عليُّ بن الجعد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن ابن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى :

{ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ } (القدرِ/٤-٥)

قال : لقد صام رسول اللـه (ص) سبع رمضانات ، وصام علي بن أبي طالب معه ، فكان كل ليلة القدر ينزل فيها جبرائيل (ع) على علي فيسلم عليه من ربه .

وقال أحمد القصري عن أبي محمد العسكري ، عن آبائه ، عن الحسين بن علي (ع) قال : سمعت جدي رسول اللـه (ص) يقول :

" ليلة أسرى بي ربّي عزَّ وجلَّ رأيتُ في بطنان العرش ملكاً بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي بن أبي طالب (ع) بذي الفقار . وإن الملائكة إذا اشتاقوا إلى علي بن أبي طالب (ع)(١٣) نظروا إلى وجه ذلك الملك ، فقلت : يا رب هذا أخي علي بن أبي طالب وابن عمي ؟. فقال : يا محمد هذا ملك خلقته على صورة علي (ع) يعبدني في بطنان عرشي ، تكتب حسناته وتسبيحه وتقديسه لعلي بن أبي طالب إلى يوم القيامة " (١٤).

وجاء في كفاية الطالب عن أنس قال : قال رسول اللـه (ص) :

" مررتُ ليلة أُســـري بي إلى السماء ، فإذا أنا بملك جالس على منبر من نور والملائكة تحدق به . فقلت : يا جبرائيل من هذا الملك ؟. قال : ادنُ منه وسلِّم عليه ، فدنوت منه وسلَّمت عليه ، فإذا أنا بأخي وابن عمي علي بن أبي طالب (ع) فقلت : يا جبرائيل سبقني علي إلى السماء الرابعة ؟. فقال لي : يا محمد لا ، ولكن شكت الملائكة حبها لعلي (ع) فخلق اللـه هذا الملك من نورٍ على صورة عليٍّ ، فالملائكة تزوره في كل ليلة جمعة ويوم جمعة سبعين ألف مرة ، ويسبحون اللـه ويقدسونه ويهدون ثوابه لمحبي علي (ع) " (١٥).

وجاء في مناقب الخوارزمي ، عن عبد اللـه بن مسعود قال : قال رسول اللـه (ص) :

" أول من اتَّخذ عليَّ بن أبي طالب (ع) أخاً من أهل السماء إسرافيل ، ثم ميكائيل (١٦) ، ثم جبرائيل . وأول مَن أحبه من أهل السماء حملة العرش ، ثم رضوان خازن الجنان ، ثم ملك الموت . وإن ملك الموت يترحم على محبي علي بن أبي طالب (ع) كما يترحم على الأنبياء (ع) " (١٧).

ومن كتاب كفاية الطالب عن وهب بن منبّه ، عن عبد اللـه بن مسعود قال : قال رسول اللـه (ص) :

" ما بعثت عليّاً في سريّة إلاّ رأيت جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره والسحابة تظله حتى يرزقه اللـه الظفر " (١٨).

وروى محمد بن علي بن عبد الصمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن أصباهان بن أسبوزن الديلمي ، عن محمد بن عيسى الكابي ، عن القعنبي (١٩) ، عن موسى بن وردان عن ثابت ، عن أنس أن النبيَّ (ص) قال :

" ليلة أُسري به إلى السماء الرابع " (٢٠).

وروى الطبري والخركوشي في كتابيهما بالإسناد عن سلمان قال النبيُّ (ص) :

" إذا كان يوم القيامة ضربت لي قبة من ياقوتة حمراء على يمين العرش ، وضرب لإبراهيم قبة خضراء على يسار العرش ، وضرب فيما بينهما لعلي بن أبي طالب (ع) قبة من لؤلؤة بيضاء ، فما ظنكم بحبيب بين خليلين ؟ " .

ونقل أبو الحسن الدارقطني وأبو نعيم الاصفهاني في الصحيح والحلية بالإسناد عن سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن أنس قال : قال رسول اللـه (ص) :

" إذا كان يوم القيامة نصب لي منبر طوله ثلاثون ميلاً ، ثم ينادي منادٍ من بطنان العرش : أين محمد ؟. فأجيب . فيقال لي : ارقَ ، فأكون في أعلاه ، ثم ينادي الثانية : أين علي بن أبي طالب ؟.

فيكون دوني بمرقاة . فيعلم جميع الخلائق بأن محمداً سيد المرسلين ، وان عليّاً سيد الوصيين " .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ، فمن يبغض عليّاً بعد هذا ؟. فقال :

" يا أخا الأنصار ، لا يبغضه من قريش إلاّ سَفَجِيّ (٢١) ولا من الأنصار إلاّ يهودي ، ولا من العرب إلاّ دعيّ (٢٢) ولا من سائر الناس إلاّ شقيّ " .

- وفي رواية ابن مسعود - :

" ومن النساء إلاّ سلقلقية " (٢٣).

أما قوله تعالى :

{ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً } (النساء/٦٩).

عبد الله بن حكيم بن جبير عن علي (ع) أنه قال للنبي (ص) :

" هل نقدر على رؤيتك في الجنة كلما أردنا ؟ " .

فقال رسول الله (ص) : " إن لكل نبي رفيقاً وهو أول من يؤمن به من أمته " .

فنزلت هذه الآية .

وروى عباد بن صهيب ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبيّ (ص) - في خبر - قيل : يا رسول الله ، فكم بينك وبين علي في الفردوس الأعلى ؟ فِتْرٌ أو أقل من فِتْرٍ (٢٤) قال :

" أنا على سرير من نور عرش ربّنا ، وعليٌ على كرسي من نور الكرسي " .

وعن عبد الصمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن عليّ بن الحسن ، عن أبيه (ع) قال : سئل النبي (ص) عن قوله تعالى :

{ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ } (الرعد/٢٩)

قال : " نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وطوبى شجرة في دار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الجنة ، ليس في الجنة شيء إلاّ وهو فيها " (٢٥).

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله (ص) يقول :

" ليلة أُسري بي إلى السمـــاء أُدخلت الجنة فرأيت نوراً أضرب به وجهي ، فقلت لجبرائيـــل : ما هذا النور

الذي رأيتـــه ؟. قال : يا محمد ليس هذا نور الشمس ولا نور القمر ، ولكن جارية من جواري علي بن أبـــي

طالب (ع) طلعت من قصورها (٢٦) فنظرتْ إليك وضحكتْ ، فهذا النور خرج من فيها وهي تدور في الجنة إلى أن يدخلها أمير المؤمنين (ع) " (٢٧) .

ونقل الحاكم الحافظ في أماليه ، وأبو سعيد الواعظ في شرف المصطفى ، وأبو عبد اللـه النطنزي في الخصائص ، بأسانيدهم أنه حدث زيد بن علي وهو آخذ بشعره (٢٨) ، قال حدثني الحسين بن علي وهو آخذ بشعره ، قال : حدثني علي بن أبي طالب وهو آخذ بشعره ، قال : حدثني رسول اللـه (ص) وهو آخذ بشعره فقال : " من آذى أبا حسن فقد آذاني حقّاً . ومَن آذاني فقد اذى اللـه ، ومَن آذى اللـه فعليه لعنة اللـه " .

وفي رواية : " ومَن آذى اللـه لعنه اللـه ملء السماوات وملء الأرض " .

وأورد الترمذي في الجامع ، وأبو نعيم في الحلية ، والبخاري في الصحيح ، والموصلي في المسند ، وأحمد في الفضائل ، والخطيب في الأربعين عن عمران بن الحصين وابن عباس وبريدة أنه رغب علي (ع) من الغنائم في جارية ، فزايده حاطب بن أبي بلتعة وبريدة الأسلمي فلما بلغ قيمتها قيمة عدل في يومها أخذها بذلك ، فلما رجعوا وقف بريدة قدام الرسول (ص) وشكى من عليٍّ ، فاعرض عنه النبيّ (ص) ، ثم جاء عن يمينه وعن شماله ومن خلفه يشكو ، فأعرض عنه ، ثم قام إلى بين يَديه فقالها ، فغضب النبي (ص) وتغير لونه وتربَّد وجهه (٢٩) وانتفخت أوداجه وقال : مالك يا بريدة ما آذيت رسول اللـه منذ اليوم ؟. أما سمعت اللـه تعالى يقول :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللـه وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللـه فِي الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } (الاحزَاب/٥٧)

" أَما علمت أن عليّاً مني وأنا منه ، وأن مَن آذى عليّاً فقد آذاني ، ومَن آذاني فقد آذى اللـه ، ومَن أذى اللـه فحق على اللـه أن يؤذيه بأليم عذابه في نار جهنم ؟. يا بريدة أنت أعلم أم اللـه أعلم ؟. أم قرّاء اللّوح المحفوظ أعلم ؟ أنت أعلم أم ملك الأرحام أعلم ؟. أنت أعلم يا بريدة أم حفظة عليَّ بن أبي طالب ؟ " .

قال : بل حفظته ، قال : " وهذا جبرائيل أخبرنـــي عن حفظة علي أنهم ما كتبوا قط عليه خطيئة منذ ولد . ثم حكى عن ملك الأرحام وقرّاء اللوح المحفوظ (٣٠) - وفيها - ما تريدون من عليٍّ ؟. ثلاث مرات " .

(١) في المصدر : شهيداً بعدي .

(٢) رداه : ألبسه الرداء .

(٣) أمالي الصدوق : (ص ٦ - ٧) .

(٤) ساح سياحة : رسب في الأض للعبادة والترهب .

(٥) في المصدر : في بلائه وصبره .

(٦) في المصدر : المقبل .

(٧) في المصدر : الذي أشجع الناس قلباً وأسخاهم كفاً .

(٨) الروضة : (٣ - ٤) .

(٩) قال في القاموس (١) : (٢٩٣) : الذود ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين .

(١٠) في المصدر : قد وصل .

(١١) في المصدر : وعن بدنه وعن رأسه .

(١٢) في المصدر : فنام صلى اللـه عليه وآله .

(١٣) في المصدر : إلى وجه علي بن أبي طالب .

(١٤) عيون الأخبار : (ص ٢٧٢) .

(١٥) كشف الغمة : (ص ٤٠) .

(١٦) المصدر : وميكائيل .

(١٧) كشف الغمة : (ص ٣٠) .

(١٨) كشف الغمة : (ص ١١٣) .

(١٩) في المصدر : عن محمد بن عيسى البكاي : عن العقيني .

(٢٠) في المصدر : إلى السماء الرابعة .

(٢١) أي من ولد من الزنا .

(٢٢) الدعي : المتهم في نسبه .

(٢٣) أي المرأة التي تحيض من دبرها .

(٢٤) الفتر - بالكسر فالسكون - : ما بين طرف الابهام وطرف السبابة إذا فتحتهما .

(٢٥) اليقين في امرة أمير المؤمنين : (ص ٦٢) .

(٢٦) في المصدر : من قصرها .

(٢٧) اليقين في امرة أمير المؤمنين : (ص ٢٠ أو ٢١) .

(٢٨) في المصدر بعد ذلك : قال حدثني علي بن الحسين وهو آخذ بشعره .

(٢٩) تربد الرجل : تعبس ، تربد اللون تغير .

(٣٠) أي حكى رسول اللـه (ص) عن ملك الأرحام وقرَّاء اللوح المحفوظ أن عليّاً لم يعص اللـه قط منذ خلق . ويمكن أن يكون فاعل (حكى) جبرائيل (ع) .